جغرافية ظهور الإسلام

تأليف

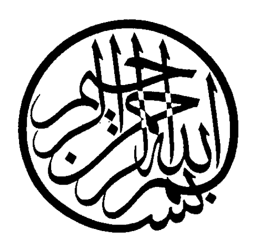
أ.د. عبدالعزيز كامل

تقديم

د. ياسين مراد

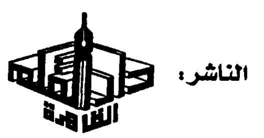
أستاذ الجغرافيا غير المتفرغ بجامعة الأزهر

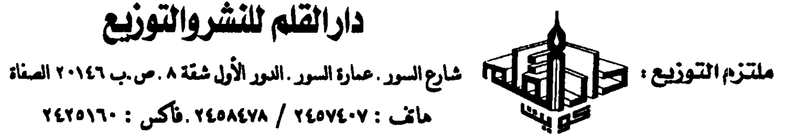




جغرافية ظهور الإسلام

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م


الناشر: دار القلم للنشر والتوزيع
٣٦ شارع القصر العيني - ص . ب : ٦٥ مجلس الشعب - القاهرة
تليفاكس / ٧٩٥١١٠٥ - محمول : ٠١٠ ١٤٦٩٠٤٥


ملتزم التوزيع: دار القلم للنشر والتوزيع
شارع السور . عمارة السور . الدور الأول شقة ٨ . ص.ب ٢٠١٤٦ الصفاة
هاتف : ٢٤٥٧٤٠٧ / ٢٤٥٨٤٧٨ . فاكس : ٢٤٢٥١٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

إنه لشرف كبير لتلميذ أن يكتب مقدمة لكتاب ألفه أستاذه ، وبالأخص أستاذ في قامة المرحوم – بإذن الله – الدكتور عبدالعزيز كامل ، والذى لم يتمكن – طيب الله ثراه – من نشره أثناء حياته، ذلك أني علمت بعد مضي عدة سنوات من انتقاله إلى الرفيق الأعلى – برغبة كريمته فى نشر هذا المُؤلف تحقيقاً لرغبة والدها ووفاء له ، وخدمة للباحثين وطلاب العلم.

ومن المعلوم أن الدكتور / عبدالعزيز كامل كان أستاذاً للجغرافيا بجامعة القاهرة قبل أن يكون نائباً لرئيس وزراء مصر في سبعينات القرن الماضي، وكان بحكم نشأته الإسلامية و تضلعه فى الثقافة الإسلامية ، حريصاً على أن يوجه معظم جهده العلمي الجغرافي لخدمة الإسلام والعالم الإسلامي ، فكان الرائد الأول بين الجغرافيين العرب فى الاهتمام بدراسة جغرافية ظهور الإسلام، على يد رسول الله ﷺ وانتشاره في ربوع شبه الجزيرة العربية، باعتبارها المسرح الجغرافي الذي دارت فوقه غزوات الرسول ﷺ وسراياه، وكان – رحمه الله – يعتبر أن الأرض والإنسان هما العنصران الرئيسان في أية دراسة جغرافية ، وحيثما يجتمعان تبدو على وجه الأرض الملامح المعبرة عن ذلك التفاعل الخلاق الذي هو مناط الدرس الجغرافي.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المراجع الجغرافية التي تناولت دراسة أثر العقيدة الدينية للإنسان في مظاهر نشاطه على سطح الأرض نادرة للغاية ، وما نشر منها كان – في الأغلب – مكتوباً بلغة غير عربية ، وكان مؤلفوها من غير العرب ، ورغم ذلك كان لديه اهتمام بالغ بقراءتها ، وأذكر أنه – رحمه الله – قد كلفني في ذلك الوقت الذي كنت اشتغل فيه بالبحث تحت إشرافه – بأن آتى له بكل ما يصدر منها ، إذا ما أُتيحت لي فرصة الحصول عليه ، نظراً لترددي في تلك الفترة على دور النشر الكبرى فى كل من لندن وباريس ، وقد وفقت حينذاك بحمد الله على مرجعين كانا قد صدرا حديثاً في سبعينات القرن الماضي وسعدت بتقديمهما

له ، وكان أحدهما باللغة الفرنسية لأحد أساتذة الجغرافيا في جامعة السوربون بباريس و هو «إكزافيير دي بلانول» بعنوان «الأسس الجغرافية لتاريخ الإسلام» ، وكان الآخر بالإنجليزية لجغرافي أمريكي هو دافيد خوفر بعنوان «جغرافية الدين».

لقد كان أمل الدكتور عبدالعزيز ، الذي داعبه طوال حياته العلمية ، أن تنشأ مدرسة جغرافية من الجغرافيين العرب ، تهتم بدراسة الإسلام منذ ظهوره في جزيرة العرب ، وانتشاره في ربوع قارات العالم ، بنظرة تحليلية تبرز أثر الظاهرات الجغرافية الطبيعية والبشرية في توجيه محاور الفتوحات الإسلامية ، والاستعانة من ناحية أخرى بالنتائج العلمية في بزوغ علم الجغرافيا في فهم و تدبر الآيات الكونية المقروءة في القرآن الكريم والمنظورة في الكون والآفاق .

هذا ، والكتاب الذي نقدمه الآن يشتمل على ستة فصول ، أولها يهتم بإبراز دور العامل المكاني في بنية القصص القرآني ومدى ارتباطه بهدف هذا القصص، مع توقيع الأماكن على خرائط توضيحية أصيلة تبين مدى تركز تلك الأماكن وانتشارها ، وعلاقة ذلك كله بمركز القصص القرآني وهو البيت الحرام ، مع مراعاة الجانبين الأساسيين في أية دراسة جغرافية ، وهما التوزيع والعلاقات ، مستعيناً في ذلك – رحمه الله – بالأحاديث النبوية والكشوف العلمية والتراث القديم.

أما «الفصل الثاني» فهو بمثابة إجابة عن سؤال لماذا اختص الله سبحانه وتعالى أرض العرب لكي تكون مهد الرسالة الخاتمة ، رسالة الإسلام التي بعث بها خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ إلى الناس كافة على وجه الأرض وحتى قيام الساعة ، وذلك على الرغم من أنه كانت في فترة البعثة مناطق في العالم القديم تميزت بوجود غنى في ثرواتها الطبيعية والبشرية عن شبه جزيرة العرب ، غير أن المؤلف باستعراضه لمناطق العالم وقت ظهور الإسلام أوضح أن شبه جزيرة العرب كانت لها مميزات في علاقاتها المكانية ، واتصالاتها بما حولها لا تتوافر في مناطق الاستقرار الكبرى في آسيا الموسمية رغم غنى تلك المناطق وكثرة عدد سكانها ، وقد علل ذلك بأن شعوب تلك المناطق مرتبطة بالأرض وليست لديها نزعة الهجرة إلى

خارجها ، الأمر الذي يجب توفره فيمن سيتحمل أمانة دعوة الناس كافة على وجه الأرض ، كذلك وضح المؤلف أن الحبشة منطقة عزلة وانزواء ، وأن دولتي الفرس والرومان كانتا مشكلاتهما تتمثل في الواقع التاريخي وفى الأوضاع التي كانت تحيا فيها كلتا الدولتين، وأن شهرة العداوات بينهما أورثتهما أحقاداً متبادلة تجعل ظهور الإسلام في أحدهما مدعاة إلى عداوة مريرة تتلقاها من الأخرى. وهنا برزت أفضلية بلاد العرب في ربط مناطق الاستقرار حولها ، وما اكتسبه العربي من ميزة كبيرة في التجارة مع شعوب العالم القديم ، ومعرفته بلغاتها مما يجعل العرب مؤهلين أكثر من غيرهم لنقل دعوة الإسلام إلى تلك الشعوب من خلال رحلاتهم التجارية.

وهنا يذكر المؤلف أن الجزيرة العربية بقيت لها منزلتها العميقة في تاريخ الإسلام وشعائره ، فكان الإسلام بذلك زرعاً مباركاً ألقيت بذرته في مكة ، ثم نقلت إلى المدينة حيث أخرج الزرع شطأه واستغلظ واستوى على سوقه ، وامتدت فروعه السامقة لتظلل الأرض بين المحيطات الثلاثة : الأطلسي والهادي والهندي وغرست بعض بذورها في العالم الجديد.

وقد خصص المؤلف الفصل الثالث ، و هو عن « طريق الهجرة » للإجابة عن « السؤال المركب » : من أين بدأت الهجرة ؟ و إلى أين انتهت ؟ و كيف تمت؟

وهنا بين المؤلف أهمية التحليل الجغرافى لتكوين المجتمع البشرى فى كل من مكة والمدينة ، أى المجتمع المعادى للدعوة ، والآخر المستقبل لها فى دار الهجرة، فضلاً عن تحليله لطريق الهجرة ، الذى ما زالت مظاهره الجغرافية من جبال وسهول ووديان باقية حتى الآن ، وهى تعتبر بذلك بمثابة وثيقة طبيعية ثابتة لم تتغير كثيراً، استفاد منها المؤلف فى إظهار حكمة الرسول ﷺ فى اتخاذ الطريق الوعر غير المطروق حتى يبعد عنه أنظار من كانوا يتبعونه من قريش. .فنجده بدأ طريقه باتجاه جنوبى مكة ، مع أن المدينة تقع فى الشمال ، ثم اختبأ فى الغار المعروف – غار ثور – و هذا يدل على معرفته بما حول مكة من جبال وغيره ، ثم تتبع طريق الساحل غير سالك منازله المطروقة ، ثم اجتاز منطقة الحار متجهاً إلى الشمال

الشرفى ، متبعاً طرقاً وعرة يضرب المثل بوعورتها ، حتى هبط العرج ، ثم وادى العقيق ، إلى أن دخل قُباء، ثم المدينة واتخذها دار هجرته ﷺ وقاعدة لنشر الإسلام.

وفى الفصلين « الرابع والخامس » أعطانا المؤلف صورة واقعية عن المجتمع البشرى فى المدينة ، باعتبارها قاعدة الإسلام الأولى ، وما كان فيها من جماعات معادية شكلت ضد الدعوة الجديدة جبهة داخلية ، فضلاً عما كانت تواجهه المدينة كذلك من مجتمعات معادية خارجها ، و قد استطاع أن يحصى توزيع هذه القوى كما يلى :

- قوة إسلامية مركزة فى المدينة وفيها جيب يهودى خطر.
- و قوة يهودية مركزة فى الشمال فى مناطق خيبر وما حولها .
- وقوة قريش مركزة فى مكة ، وحولها مجموعة من القبائل المتحالفة معها.
- وقوة الروم عند أطراف الجزيرة ومناطقها الشمالية تتربص بالمسلمين الدوائر.

وكان هدف المؤلف ، من إعطائنا هذه الصورة أن يكون لدى القارئ خلفية بشرية عن قاعدة الإسلام الأولى، التى ستنطلق منها الفتوحات الإسلامية، من غزوات وسرايا ، وخاصة « غزوة الأحزاب » التى كانت بداية لتمكين المسلمين فى الأرض ، و تكوين الدولة الإسلامية بعد ذلك، وقد فصل المؤلف فى « الفصل الخامس » كيف راعى الرسول ﷺ المجال الجغرافى للمدينة وما حولها فى توجيه الصراع بين المسلمين وأعدائهم، وخاصة اليهود - داخل المدينة وخارجها - سواء منهم بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة وحلفاؤهم من قريش.

وإذا كان المؤلف قد جعلنا فى الفصول السابقة نعيش مع الرسول ﷺ وصحابته فى البيئة الجغرافية التى شهدت ظهور الإسلام ، وما دار فوق أرضها من صراع ضد الدعوة الإسلامية، نجده فى « الفصل السادس » وهو الأخير ، ينتقل بنا إلى « عالم القرآن » مستعرضا ما رد به من آيات الله فى الكون فى الآفاق والأنفس ،التى نعايشها الآن وهى بحق ظاهرات جغرافيه حفل بها القرآن الكريم . فبدأ بدراسة

الآيات القرآنية التي اشتملت عليها الأرض من جبال وسهول ووديان وأنهار، وما يطرأ عليها يومياً من ليل ونهار، وحر وبرد، وسحاب ومطر، ثم ينتقل إلى دنيا النبات والحيوان ، ثم الإنسان ومسكنه وكسائه وطعامه ومشربه ، ونشاطه الاقتصادى ، بحرفه المختلفه من جمع والتقاط وصيد وزراعة وصناعة وحرف يدوية و معاملات تجارية .

ثم يختم المؤلف هذه الدراسة العلمية المتميزة باستعراض مظاهر الحياة الاجتماعية للمجتمع الإنسانى تحت عنوان «مجتمعات القرآن» وكيف أن الله سبحانه وتعالى أحصى فى كتابه الكريم كل ما يطرأ على البشر فى حياتهم على وجه الأرض فى آيات مباركة من كتابه الكريم .

لقد كان الدكتور عبدالعزيز كامل شخصية فعالة مؤثرة فى الكثير من جوانب حياتنا ، وها هو ذا من مثواه الكريم فى رحاب مولاه عز وجل - يواصل دوره الفعال فى حياتنا الفكرية والثقافية وصدق رسول الله ﷺ بقوله : «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له» رحم الله أستاذنا، وتغمده بواسع فضله وغفرانه .

د .ياسين مراد

القاهرة فى غرة ذى القعدة عام ١٤٢٦ هـ

الموافق الثالث من ديسمبر عام ٢٠٠٥ م





-١-

جغرافية القصص القرآني

مدخل

موضوع ومنهج

فى هذه الدراسة نحتاج إلى رحلتين عبر الزمان والمكان. سنعود معًا خمسة عشر قرنا إلى عهد النبوة وإلى منزل الوحى. ذلك لأن الجغرافيا التاريخية هى دراسة «الحاضر التاريخى». والجغرافيا فيها عملية عودة الكاتب بفكره إلى موضوع دراسته: زمانا ومكانا.

وهناك إدراك عام بأن الجغرافيا والتاريخ صنوان. ولا تزال منطقة الحدود المشتركة بينهما غير مطروقة - نسبيًا - والجغرافى والمؤرخ على السواء، يدركان تمام الإدراك أن هاتين الدراستين مترابطتان، وأن كلاً منهما تستطيع أن تقتبس ضوءاً من الأخرى، بل يتحتم عليها أن تفعل ذلك فى دراسات معينة[١].

وأود أن أقرر ابتداء، أن هذه الدراسة ليست متابعة لما نجده عند غلاة الجغرافيين الذين يتشيعون لنظرية «الحتم الجغرافى» كراتزل وديمولان ومس سمبل، ويرجعون الظاهرات البشرية - أساسا - إلى العوامل الجغرافية، ويرون أن البشرية، لو عادت سيرتها الأولى، لسارت فى نفس الاتجاه الذى اتخذته من قبل، إذا كانت العوامل متشابهة[٢].

وبين هذين الاتجاهين الحتمية والإمكانية - ظهرت اتجاهات أخرى تختلف فى

---

(١) وولدردج وإيست: الجغرافيا مغزاها ومرماها، ص١٠٥، ترجمة يوسف أبو الحجاج، الألف كتاب (١٨٧) وزارة التربية والتعليم.، القاهرة.

(٢) G. Tatham; Environmentalism and Possibilism, p. 140. In Geography in the Twentieth Century. London 1962)

مدى اقترابها من أحدهما .وإذا كانت هذه الاتجاهات الحديثة فى تفسير التاريخ تتأرجح بين الحتمية والإمكانية، فإن الفكر الإسلامى له دوره فى هذه المجالات التى وضح فيها دور العوامل الجغرافية فى سير التاريخ، وأعطى – فى نفس الوقت – نصيبا مرموقا لدور الإنسان فى تطويع هذه العوامل.

ولعل من الدراسات الرائدة فى هذا المجال ما كتبه ابن خلدون فى مقدمته ودرس فيه عناصر البيئة الطبيعية ومظاهر النشاط الاجتماعى. ويمكن –على سبيل المثال – أن نرجع إلى ما كتب عن تأثير المناخ وعن نظريته فى تكوين الدولة وعن دراسته لقيام المدن، كذلك ما كتب المقريزى فى كتاب: «إغاثة الأمة بكشف الغمة» ودرس فيه تاريخ المجاعات فى مصر ولم يقف فى كتابه هذا عند حدود العوامل الطبيعية كتغيرات الفيضان، وإنما وجه أكبر قسط من عنايته إلى العوامل البشرية كنظام الحكم وملكية الأراضى الزراعية ومشكلات النقد. والمقريزى –بحق– يمكن اعتباره رائدا من رواد «الإمكانية» التى تفسح مجالا واسعا للنشاط والمسئولية البشرية[1] وهذا الاتجاه – قديما وحديثا – يحاول أن يستقرئ قوانين تطور المجتمع. وإذا كان هذا الاتجاه قد كسب أرضا ثابتة إلى ميادين العلوم البحتة، فإن الجهود التى بذلت فى ميادين العلوم الاجتماعية – وبخاصة فى تفسير التاريخ – لا تخلو من غلو فى تقدير أهمية عامل معين من العوامل المؤثرة فى الحياة البشرية. وهذا الإغراء طالما تعرض له المختصون بدراسة هذا العامل وترتب على هذا وجود مدارس متعددة حاولت تفسير التاريخ، واتخذت كل منها لنفسها أساسا متميزا. فهناك تفسيرات دينية وجغرافية واقتصادية ونفسية وجنسية (عنصرية أو عرقية) تتعصب لأجناس معينة، ثم هناك التفسير المركب للتاريخ الذى يحاول أن يجمع العوامل فى تكوين متسق، ومع أن المدرسة الاجتماعية الفرنسية ألقت أضواء قوية على الدراسة الموضوعية للظاهرات الاجتماعية، واستطاع إميل دوركايم أن يؤصل لها منهجا متميزا إلا أن مدارس تفسير التاريخ ظل لها من يدافعون عنها، وظل من

---

(1) Abd El-Aziz Kamil: Al-Maqrizi and the Nile Flood مجلة الجمعية الجغرافية المصرية المجلد ٣٩ لسنة ١٩٦٦ ص١٩-٢٢ .

بين العلماء من يحاول إخراج نظريات جديدة فى هذا الأمر(١) .

وليس فيما أقصده من هذه الدراسة شيء من التشيع لمدرسة من هذه المدارس، وإنما الذى أستهدفه إبراز مكانة الجغرافيا فى دراستنا وفهمنا للإسلام. والجانبان الأساسيان فى أية دراسة جغرافية هما: توزيع الظاهرات وإظهار العلاقات التى بينها، وما يقوم على التوزيع والعلاقات من أنماط نستطيع أن نختزل بها كثيرا من الحقائق الجغرافية.

مجالات بحث

وفى جغرافية الإسلام – بعامة – موضوعات كثيرة تحتاج منا إلى عناية ولنأخذ بعض الأمثلة:

١– هناك أولا التوزيع الجغرافى للأماكن التى وردت فى قصص القرآن وما بينها من علاقات ترتبط بهدف القصص القرآنى.

٢– ونحن نعلم أن الإسلام ظهر فى الجزيرة العربية، وكانت فى العالم وقتئذ مناطق أخرى أوفر غنى وأكثر استقرارا. فلماذا كانت مكة مهد هذا الدين؟ ولماذا كانت الجزيرة العربية أنسب البيئات لظهور الإسلام؟ والله أعلم حيث يجعل رسالته.

وأبادر فأقول: إن هناك اعتراضا قد يوجه إلى هذا السؤال. وهو أننا نحاول أن نعلل لحقيقة قائمة فعلا. أى أن الإسلام لو نشأ فى مكان آخر لحاولنا تفسير ذلك أيضا. وهو اعتراض يفتح باب المقارنة بين واقع وخيال، مهما حاولنا تقييده، فلن تصل قيوده إلى مستوى الحقيقة التاريخية الثابتة، وليست الأحداث بين أيدينا مواد نستطيع أن ندخلها معمل التاريخ من جديد ونغير من مقاديرها وخصائصها لنرى تفاعلها كما نفعل فى العلوم التجريبية، وإنما نحن مقيدون بالواقع ومحاولة تفسيره دون إيجاده.

٣– ونعلم من تاريخنا أن النبى ﷺ دعا أصحابه إلى الهجرة إلى الحبشة مرتين ولم يهاجر معهم. وعندما فتحت المدينة قلبها للإسلام، هاجر إليها النبى

---

(١) يمكن الرجوع فى عرض تفسيرات التاريخ إلى: ويل ديوارنت: مباهج الفلسفة. الكتاب الثانى، الفصل الرابع عشر، ص: ٥ ٥٧ – الترجمة العربية للأهوانى. القاهرة ١٩٥٦ .

وأصحابه. والفرق هنا واضح بين هجرة الإيواء فى الحبشة، وهجرة الإيواء والانطلاق لنشر الدعوة من المدينة، وتستطيع العوامل الجغرافية أن تفسر لنا الفروق بين البيئتين العربية والحبشية.

٤- وكانت الحياة فى قاعدة الإسلام فى المدينة، والغزوات، وتوزيعها، وعلاقة ميادينها بطرق التجارة ومناطق الاستقرار العربية، ومواقع اليهود وقراهم التى احتلوها فى الجزيرة العربية: فى المدينة وجنوبها الشرقى حيث ديار بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة، وفى شمال المدينة فى فدك ووادى القرى وخيبر وتيماء.

٥- ثم جغرافية حروب الردة، وكيف ارتبط توزيع الجيوش الإسلامية بتوزيع مناطق الاستقرار البشرى الرئيسية فى الجزيرة العربية.

٦- ثم انتشار الإسلام خارج الجزيرة العربية، والطرق التى اتبعها ولماذا اختلف أسلوب نشر الإسلام فى المحيط الهندى والأقطار المطلة عليه، عن الأسلوب الذى اتبع فى نشر الإسلام شمالا، والأبواب التى دخل منها إلى أفريقيا وآسيا. وعلاقة الإسلام بمناطق الاستقرار الرئيسية القديمة: دولتى الفرس والروم وقتئذ، وكيف أدى انتقال مركز ثقل العالم الإسلامى إلى الشمال إلى هجرة العاصمة من المدينة إلى الكوفة ودمشق وبغداد والقاهرة.

٧- وظلت جبال طوروس إلى الشمال من أرض الشام حاجزا تتصادم فيه وحوله أمواج الإسلام والروم، حتى قامت دولة الأتراك السلاجقة. واندفع الزحف الإسلامى عبر الجبال والبحار حتى وصل إلى فيينا. ووقفت جبال الألب حائلا بين الزحف الشرقى وبقية القارة، كما عاقت الزحف الإسلامى الذى خرج من الأندلس حتى سويسرا وجنوب ألمانيا.

٨- وفى أفريقيا اتبع الإسلام المحور النيلى إلى الجنوب، والمحور الساحلى إلى الغرب. ولكل من المحورين أكثر من شعبة. وحملت سفن عرب الجنوب الإسلام من سواحل الجزيرة العربية إلى شرق أفريقيا وجزر المحيط الهندى. والتقى المحوران النيلى والساحلى - بعد اختراق الصحراء ودورانه حولها - فى النطاق الرعوى السودانى. وسارت القوافل تربط بين الشمال والجنوب، والشرق والغرب.

وانتظمت رحلات الحج نهرا بشريا يجمع روافده من غرب أفريقية، ويحمل الحجيج إلى منزل الوحى.

٩- وحاول الاستعمار الأوروبى، وفى الحروب الصليبية، أن يخترق الهلال الإسلامى حول البحر المتوسط، وتحطمت موجاته العنيفة بعد مقاومة باسلة عنيدة. فلم يجد الاستعمار إلا أن يدور حول أرض الإسلام فى حركة الكشوف الجغرافية، ليجعل من نفسه دائرة ضخمة حول الهلال الإسلامى.. دائرة تبدأ من غرب أوروبا لتحيط بأفريقية ممتدة إلى الشرق الأقصى عائدة إلى أوربا من الشرق. وقامت الحروب بين المطامع الأوربية وبين أفريقية وآسيا ولم يصطل بنارها المسلمون وحدهم، وإنما امتد لظاها إلى الديانات التقليدية القديمة فى أفريقية، والهندوكية، والبوذية، والكونفوشيوسية.. فى آسيا.

١٠- ولم تقتصر هذه الحروب على الجانب الدينى والتبشيرى وحده، وإنما أرادت منها أوربا سيطرة كاملة على الأرض والبشر.. على الموارد الاقتصادية، وتحطيم المجتمعات القائمة إذا كانت ذات حيوية، أو إبقاءها فى إطار متيبس بحيث تظل المقدرات والثروة فى أيدى المستعمرين الجدد، ولا يبقى للأرض وسكانها إلا أن يكونوا وقودا للجهاز الاستعمارى الجديد.

١١- ورغم هذا استطاع الإسلام أن يكسب فى أفريقية أرضا وأنصارا.. وتضاعف عدد المسلمين فى أفريقيا أكثر من مرة منذ مطلع القرن العشرين.

والغربيون يهتمون كثيرا برصد هذه الدراسات، ولهم معاهدهم المتخصصة التى تعنى بكل ما يمكن جمعه من المعلومات عن العالم الإسلامى، ولهم خرائطهم وإحصاءاتهم وأبحاثهم وعملهم الدائب المنهجى، الذى تصب فيه معلومات ترد إليهم من كل أقطار الإسلام.

١٢- ثم هناك عرض جغرافية أقطار العالم الإسلامى المعاصر.. بعد هذا التطور الطويل، والتعريف به، ودراسة مشكلاته، حتى تتضح فى أذهاننا صورته بتكاملها وتفاصيلها وعلاقاتها.

كل هذه جهود تبحث عن مؤلفين، وهو عمل تنوء به العصبة، ويحتاج -أول ما يحتاج- إلى منهج علمى، واتصالات علمية منظمة، شاملة متخصصة، ومتابعة راصدة لنبض الإسلام.

وأذكر بحثا كتبه الجغرافى الأمريكى «بومان»[1] ، ونشر عام ١٩٢٤، وكان عنوان البحث «العالم الإسلامى» . وفى دراسته هذه عنى بعرض الملامح الجغرافية العامة لأرض الإسلام، ودرس موقعها ومناخها، ومدى توافر موارد المياه والمواصلات فيها، وتوزيع سكانها، والحرف التى يمارسونها وثروتها الاقتصادية .

ثم انتقل بعد هذا إلى الجانب التطبيقى، فدرس علاقة أقطار الإسلام بالاستعمار الأوربى، وقدرة كل منها على الثورة فى وجه الاستعمار . وأخذ يحسب إمكانية النجاح فى ذلك على أساس من الموارد الطبيعية والبشرية، وتأثير ذلك النجاح -إن تم- على الدول الأوربية . وواجب الحضارة الأوربية فى إيقاف هذا المد الثورى الذى يرمى إلى الاستقلال الكامل، وخطورة ذلك على الوضع العالمى .

ولا شك فى أن بعض النتائج التى وصل إليها «بومن» لم تعد صحيحة، خصوصا بعد كشف البترول، ووجود أكثر من ثلثى احتياطيه فى أرض الإسلام، ثم اليقظة الإسلامية التى استطاعت بها شعوب كثيرة أن تتحرر من الاستعمار الأوروبى بعد الحرب العالمية الثانية، وتطور طرق المواصلات التى دعمت الروابط بين أجزاء العالم الإسلامى، ودعم حركات التحرر فيه، والتغلب على بعض العوائق الطبيعية .

ولا شك أيضا فى دخول عوامل جديدة فى الصراع بين أرض الإسلام والاستعمار الجديد، جاءت نتيجة لهذه التطورات، تبدو – أول ما تبدو– فيما اتبعه الاستعمار الجديد من محاولات لتقييد انطلاق الحرية فى قطاعات أرض الإسلام، وما استطاع تحقيقه فى هذا السبيل؛ والمقاومة الباسلة التى تقوم بها بعض هذه القطاعات – شعبيا أو حكوميا أو كلاهما – لصيانة الاستقلال السياسى

---

(١) Bowman, I. : Mohammedan World, Geog. Review, Vol. XIV, No. 1, January, 1924, pp. 62-74, New York

باستقلال ودعم اقتصادى وعلمى.

كل أولئك يفرض علينا أن نمهد لتطورنا الشامل بمسح علمى نستطيع فى ضوئه، وعلى أساس من متابعته المستمرة، أن نسير فى طريقنا على هدى وبصيرة. وبهذا تكون لدراساتنا جانبها التطبيقى الوثيق الصلة بالمجتمع.

منهج البحث

ويمكن أن تنقسم هذه الدراسة إلى قسمين رئيسيين:

الأول: جغرافية الإسلام التاريخية، وهذه تعنى بالتفسير الجغرافى، أو على الأصح بالجانب الجغرافى من تاريخ الإسلام، بادئة بعصر النبوة، وهو مجال بحثنا – متتبعة العامل المكانى فى أرض الإسلام عبر التاريخ فى بيئات الإسلام وأقطاره.

وواضح أن هذه الدراسة يمكن أن تنقسم بدورها على أساسين: إقليمى وتاريخى، بحيث يكون عندنا أكثر من جغرافيا تاريخية ، واحدة للإسلام: قد تدرس عصرا معينا أو اقليميا معينا. وهذا الإقليم المعين قد ندرسه –بدوره– فى عصر معين أو عدة عصور متتابعة.

ولنضرب لذلك أمثلة:

١– نستطيع أن ندرس جزيرة العرب فى عصر النبوة، ويمكن أن نتابع الدراسة فى عصر الخلافة الراشدة، والعهد الأموى والعباسى.. وفى هذا التتابع نحن مقيدون بمكان معين هو الجزيرة العربية.

٢– ويمكن أن ندرس عصرا معينا، وليكن مثلا عصر بنى أمية، ودراستنا فيه لن تقتصر على الجزيرة العربية، وإنما ستشمل أرض الإسلام كلها.. فالأساس هو العصر، بينما كان الأساس فى الحالة السابقة هو المكان.

ومهما يكن اختيارنا لمجال البحث فى الجغرافيا التاريخية، فلابد أن يحدده زمان ومكان. ولكن هذه الدراسة لن تعزل المكان عما حوله، ولا الزمان عما قبله وما

بعده، ولكن ستجعل الحقائق التى نوردها فى البحث وما بينها من ارتباطات وعلاقات، ستجعل هذا كله فى خدمة موضوع الدراسة.

الثانى: الإسلام المعاصر. ولابد أن نستعين فى تفسيره بالعمق التاريخى الذى اكتسبناه من الدراسة الأولى. وهذا القسم الثانى قد يشمل أرض الإسلام بدوره – فهذه دراسة أصولية أى عامة وشاملة– وقد يقتصر على قطر أو قطاع– وهذه دراسة إقليمية.

فالجانب المشترك بين القسمين: التاريخى والمعاصر وإمكان تقسيمهما إلى قسمين: عام وإقليمى. والجانب المختلف، أن أحدهما يعنى بالماضى والثانى يعنى بالحاضر.. بعبارة أخرى، الجغرافيا كما كانت والجغرافيا كما هى الآن.

نحو التطبيق

وإذا كانت الدراسة الجغرافية قد اتجهت –فعلا– فى تطورها المعاصر إلى العناية بالتطبيق، فإن القسم الثانى –أعنى الجغرافيا المعاصرة– هى الأشد ارتباطا بالواقع المعاصر. وبالتالى هى الأقرب إلى الجانب التطبيقى من القسم الأول. ولكن الدراسة التطبيقية، لا يمكن أن تقوم على أساس سليم، دون أن تتضح الأعماق التاريخية لها، وأن تكون مراحل تطورها واضحة بين أيدينا. ومن هنا يبدو جانب من أهمية الجغرافيا التاريخية الإسلامية، فضلا عما فيها –لذاتها– من قيمة علمية.

هذا إلى أن الجغرافية التاريخية ستعطينا –على مستوى تاريخى– النظرية والتطبيق وستوضح لنا البيئة الجغرافية كيف تحرك فيها الإسلام واستفاد من ظروفها وتغلب على عقباتها، وكيف استطاعت هذه العوامل –فى بعض العصور والأقاليم– أن تعوق من انتشار الإسلام، حتى جاءت دفعات أقوى، وكانت لها القدرة على اجتياز العقبات.

موضوعنا :

فى هذا الضوء نستطيع أن نتبين مكانة الدراسة التى بين أيدينا .فهى قطاع من جغرافية الإسلام : الجزيرة العربية بعده المكانى ، وعصر النبوة بعده الزمانى . ويشمل أربع دراسات رئيسية :

الأولى – مدخل جغرافى إلى قصص القرآن الكريم .

الثانية – قيام الإسلام .

الثالثة – طريق الهجرة .

الرابعة – جغرافية الغزوات النبوية .

ويضم هذه الدراسات أنها جميعا ترتبط وتمثل جغرافية الإسلام فى عصر النبوة .

وكان البدء بالقرآن الكريم – معجزة الله الكبرى الباقية على مدى العصور – والقرآن الكريم جاء فيه ذكر أماكن معينة . وكان للباحثين فيها أكثر من رأى . وذهب بعضهم –كما سنرى– إلى إغفال أهمية العامل المكانى، أو على الأقل التهوين من شأنه .

من أجل ذلك كانت عناية البحث بإبراز أهمية هذا العامل ومدى ارتباطه بهدف القصص القرآنى، مع توقيع الأماكن على خرائط توضيحية أصيلة، توضح هذه الأماكن ومدى تركزها وانتشارها، وعلاقة ذلك كله بمركز القصص القرآنى، وهو البيت الحرام .

فإذا درسنا العامل المكانى فى قصص القرآن ، أمكن أن ننتقل إلى العامل المكانى فى قيام الإسلام نفسه . وبهذا يعنى البحث الثانى، على أساس من الدراسة المقارنة بين بيئات الاستقرار والرحلة فى العالم القديم، والانتهاء من ذلك إلى بيان منزلة مكة بخاصة، والقطاع الأوسط من نطاق الواحات الممتد بين اليمن والشام .

فى هذه الدراسة سنوجه عناية إلى ظروف مكة الجغرافية عند قيام الإسلام، ثم ننتقل منها إلى دراسة طريق الهجرة بين مكة والمدينة، مع العناية بالفرق بين هجرة الإيوء فى الحبشة وهجرة الانطلاق لنشر الدعوة فى المدينة ومنها.

وإذا كانت الدراسة الأخيرة عن جغرافية الغزوات فينبغى التمهيد لها بعرض لجغرافية قاعدة الإسلام فى المدينة، وتحديد الجبهات الداخلية والخارجية التى استطاع الرسول ﷺ والذين معه أن يقابلوها وينتصروا عليها حتى دانت الجزيرة العربية للإسلام.

وقد سبق إلقاء ونشر جوانب من هذه الدراسة فى المواسم الثقافية للأزهر الشريف ما بين أعوام ١٩٦٠، ١٩٦٣ . وقد عدت إلى الأصول التى بين يدى وراجعتها وأدخلت عليها إضافات وتعديلات، جاءت نتيجة مراجعة ذاتية وملاحظات أبداها بعض الزملاء -مشكورين- ومراجع جديدة وخرائط أمكن الوصول إليها أو تصميمها.

وأرجو أن تستطيع الجهود المشتركة متابعة هذه الدراسات، ونقلها من المستوى الفردى إلى المستوى العام لتتكون منها - جميعا - صورة شاملة لجغرافية الإسلام فى امتدادها الزمانى والمكانى وتكاملها الموضوعى، ليكون هذا الوضوح أداة تعين على تخطيط مستقبل الإسلام.



الفصل الأول

مدخل جغرافى إلى قصص القرآن الكريم

الذين درسوا قصص القرآن تفاوتت عنايتهم بالمكان:

١- فالشيخ عبد الوهاب النجار[١]، اهتم بالعرض التاريخى وإظهار العبرة من القصة معتمدا على القرآن والأحاديث والعقل، مستأنسا بالتوراة والإنجيل، محاولا تفسير المشكلات بما يتفق مع آيات القرآن والخبر المتواتر، كما رد الأخبار السابقة التى لا تتفق مع القرآن والعقل؛ أما «المكان» فعرض له فى قصص متفرقة دون إبراز ما بين الأمكنة من علاقات. واتجهت عناية الأستاذ جاد المولى[٢] فى قصص القرآن إلى السرد المبسط مع إظهار العبرة.

٢- وذهب الدكتور خلف الله فى كتابه «الفن القصصى فى القرآن الكريم» إلى أن القرآن لم يقصد إلى التاريخ إلا فى القليل النادر الذى لا حكم له، وأنه على العكس من ذلك، عمد إلى إبهام مقومات التاريخ من زمان ومكان، ومن هنا يتبين أن القوم عكسوا القضية حين شغلوا أنفسهم بالبحث عن مقومات التاريخ وهى غير مقصودة، وأهملوا المقاصد الحقيقية للقصص القرآنى[٣] وقال عن المكان: إنه قد أهمل إهمالا يكاد يكون تاما، لولا تلك الأمكنة القليلة المبعثرة هنا وهناك، والتى لم يلتفت إليها القرآن إلا عرضا[٤]، ومما استند إليه فى قوله هذا ما ذكره السيد رشيد رضا فى تفسير المنار عندما شرح قصة آدم. ولكون التاريخ غير

---

(١) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء - المقدمة، صفحات س، ع، القاهرة ١٩٥٦

(٢) محمد أحمد جاد المولى وآخرون: قصص القرآن، المقدمة، القاهرة ١٩٣٧

(٣) محمد أحمد خلف الله. الفن القصصى فى القرآن الكريم ص٩ . القاهرة ١٩٥٠/١٩٥١

(٤) محمد أحمد خلف الله. «الفن القصصى فى القرآن الكريم» ص٦٠ . القاهرة ١٩٥٠/١٩٥١

مقصود له، لأن مسائله من حيث هو تاريخ، ليست من مهمات الدين، من حيث هو دين، وإنما ينظر الدين من التاريخ إلى وجه العبرة دون غيره، لم يبين الزمان والمكان كما بينا فى سفر التكوين(١). ويبدو أن هذا رأى الأستاذ رشيد فى الأمكنة والأزمنة التى لم يذكرها القرآن. أما ما ذكره من الأمكنة والمواضع فله فيه رأى آخر، فعند دراسته سورة هود، خصص بحثا لقصص القرآن جاء فى مزاياه فى إعجازها العلمى «ما فى قصص الأقوام من المسائل التاريخية والموضعية(٢)، وضرب لها أمثلة بقصص موسى وفرعون وهود وعاد وصالح وثمود».

٣- ووجه السيد مظفر الدين الندوى عنايته فى كتابه «التاريخ الجغرافى للقرآن» إلى ما جاء فى القرآن من أمور تصل بالمعالم الجغرافية والحوادث التاريخية التى جاء ذكرها فيه، للتدليل على صدق روايته(٣) وعنى بالتحديد الزمنى وتحقيق الأعلام معتمدا على التوراة والإنجيل والروايات العربية والآثار وتحقيق الصلات بين أسماء الأشخاص والشعوب التى يعرض لها التاريخ ومواطنهم. واعتمد كثيرا على ما كتبه الأستاذ سليمان الندوى فى كتابه «أرض القرآن» واستوعب محتوياته وأضاف إليها ما يمكن إضافته من بعض المصادر الأخرى التى ظهرت بعد تأليفه.

٤- وعنى الجغرافيون الفرنسيون بجغرافية الأديان. ومن أهم الكتب فى هذا الموضوع كتاب «الجغرافيا والأديان» الذى كتبه بير ديفونتين(٤). ويدرس فيه العلاقة بين الدين والمساكن والسكان، واستغلال الإنسان البيئة فى الإنتاج الزراعى والرعوى والصناعى، والعلاقة بين القرابين والاستهلاك الاقتصادى، ودرس التبادل والرحلات الدينية والحج والنواحى التجارية التى تقوم على أساس دينى. وعلاقة الدين بأنماط الحياة. والكتاب بهذا يدخل فى نطاق الجغرافيا البشرية الأصولية التى تعنى بظاهرة أو عدة ظاهرات بشرية مترابطة فتصفها وتوزعها على سطح الأرض،

(١) محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ص:١: ٢٧٩ القاهرة ١٣٧٦هـ

(٢) نفس المرجع، ص:١٢: ٤٢

(٣) مظفر الدين الندوى: التاريخ الجغرافى للقرآن -المقدمة- الترجمة العربية لعبد الشافى غنيم - القاهرة ١٩٥٦

(٤) Deffontaines, P. : Géographie et Religions, gallimard, 1948.

وتدرس ترابطها وعلاقاتها بغيرها من الظاهرات الجغرافية . وكذلك كتاب ديبلانول « العالم الإسلامى : دراسة فى الجغرافيا الدينية »[١] .

وفى الكتاب مع إيجازه معلومات قيمة إلا أنه ينبغى أن يقرأ قراءة ممعنة، ذلك لأن الكاتب شديد التأثر بنظرية الحتم الجغرافى وربط الإسلام بمناطق الرعى ومناطق المدن . وقد درس تطور الإسلام وحدوده وجبهاته والعوامل المؤثرة فيها . وفى الكتاب ميل وتحيز لا ترضاهما نزاهة البحث .

٥- وقبل هذه النماذج من الكتب الحديثة، عنى مؤرخو الإسلام والمفسرون بقصص القرآن . معتمدين أساسا على ما جاء فيها وما صح من الأحاديث . واستعانوا - مختلفين فى قدر الاستعانة - بالإسرائيليات . ولعل من أفضل الكتب فى هذا الصدد « تاريخ الأمم والملوك » لأبى جعفر بن جرير الطبرى . وذكر فى صدر كتابه القواعد التى سار عليها فى إسناد الأخبار إلى رواتها . يقول الطبرى « فما يكن فى كتابى هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قائله، أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجها فى الصحة ولا معنى فى الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت فى ذلك من قبلنا، وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا وإنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا »[٢] .

٦- والمرجع الأساسى لهذا البحث هو القرآن الكريم . وعلى هدى آياته سنحاول توضيح أماكن القصص، وما ينتظمها من وحدة جغرافية وما بينها من علاقات . أى أن عناية البحث ستتجه إلى الجانبين الأساسيين فى أية دراسة جغرافية وهما التوزيع والعلاقات . ولن نعرض قصصا أغفل القرآن ذكرها . ولن نحمل الآيات -من الناحية المكانية- أكثر مما تحتمل . وسنستعين بالأحاديث والكشوف العلمية والتراث القديم فى الشرح والمقارنة .

---

(١) De Planhol, : Le Monde Islamique, Essai de Geographie religieuse, Presses Universitaies de France, Paris, 1959. (م٢ جغرافية الإسلام) .

(٢) تاريخ الطبرى ١ : ٨ ، ط المعارف القاهرة .

١- تبدأ قصة الإنسانية فى القرآن بخلق آدم. ويعلم الله الأب الأول الأسماء كلها. ويسجد له الملائكة إلا إبليس. ويسكن آدم وزوجه الجنة ويوسوس إليه الشيطان ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى﴾ (طه: ١٢٠) ويغلب الطموح العقل. ويتوب الله على عبده. ويهبط آدم وزوجه الأرض وفيها يتشعب أبناؤهما، يضطربون بين أمر الله وطموح النفس وهواها ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ (طه: ١٢٣-١٢٤) وتدارك رحمة الله عباده فيرسل إليهم الرسول بعد الرسول ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٤) ، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم: ٤).

٢- فالله لم يجعل أمة دون أن يجعل لها نذيرا قادرا على البيان بلسان قومه، ويخاطب الله نبيه بقوله عن الرسل ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (غافر: ٧٨). أى أن هناك اختيارا لمجموعة معينة من القصص ذكرها الله فى كتابه ووصفها بقوله. ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ (يوسف: ٣). فهل يستطيع «المكان» أن يفسر لنا جانبا من حكمة هذا الاختيار؟.

٣- ويختلف مدى وضوح المكان من قصة إلى أخرى:

(أ) فقد يذكر المكان باسمه الصريح المعروف، كالمسجد الحرام والمسجد الأقصى، فلا يختلف فيه وقت نزول القرآن ولا بعده.

(ب) وقد يذكر الاسم العلم، ولكن يختلف فى تحديد موقعه، كالجودى جبل نوح.

(ج) وقد يذكر بصفته كـ « ربوة ذات قرار ومعين » فتتعدد فى تفسيرها وتحديدها الآراء.

(د) وقد نذكر القصة، دون إشارة إلى المكان، مثل قصة إدريس.

(هـ) وقد يذكر اسم صاحب القصة ، دون أن تذكر قصته، كذى الكفل وقوم تبع.

(و) وقد ينسب صاحب القصة إلى المكان، كأصحاب الرس دون عرض للقصة.

(ز) وقد تذكر القصة دون تحديد لمكانها. ولا اسم صاحبها، كقصة الرجل المؤمن فى سورة يس.

(ح) وقد تذكر مجموعة من القصص فى نسق واحد كأنها سنن وقوانين تسير عليها الرسالات، مثل قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ** ﴾ (إبراهيم: ٩). وتتتابع بعد هذا الآيات توضح ما حدث للرسل وأقوامهم، وجزاء من اتبعوهم، ومن أعرضوا عنهم فى الدنيا والآخرة.

٤- ويمكن تقسيم قصص القرآن على أساس تاريخى إلى قسمين متميزين يتباينان فى مدى وضوح المكان.

القسم الأول: ما قبل الطوفان، ويشمل قصص آدم وإدريس ونوح. وفى هذه المجموعة لا نكاد نجد ذكرا للمكان إلا ما جاء فى أمر الجودى فى قصة نوح. ولا زال موضعه محل جدل. والمكان رغم ضآلته فى هذه المجموعة أوضح فى القصص المتأخر - نوح - عن القصص الأقدم - آدم وإدريس-. والجودى مرتبط بأحداث ما

بعد الطوفان. وعلى هذا نستطيع أن نستبعد التحديد المكانى استبعادا كاملا من قصص ما قبل الطوفان.

القسم الثانى: ما بعد الطوفان من هود إلى محمد ﷺ، وفيه أمكنة متعددة سنحاول أن نتبين مجالها.

مركز الخريطة ومنطقة القلب

١- البيت الحرام: هو الموضع الذى يمكن اعتباره مركز خريطة قصص القرآن. وليس هناك مكان آخر يدانيه فى أهميته والأحكام المرتبطة به فى الإسلام. فيقول تعالى: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ**﴾(آل عمران:٩٦). ومن جواره أوحى الله إلى آخر أنبيائه. وإليه يتوجه المسلمون فى الصلاة. وكتب عليهم حجه. وأسكن إبراهيم زوجه وولده إلى جواره. واستجاب له فجعل أفئدة من الناس تهوى إلى البيت ومن حوله ورزقهم من الثمرات. وامتن على قريش به. ولم يشرع القتال عنده إلا إذا قوتل المسلمون فيه. والحرمة تشمل مكة. وفى هذا قال النبى ﷺ يوم الفتح: «إن هذا البلد حرام، حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام حرمه الله تعالى إلى يوم القيامة»[1].

٢-هذا البلد الأمين الذى حرمه الله، سماه الله فى كتابه بأكثر من اسم. فهو مكة فى قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾ (الفتح:٢٤) وهو بكة فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ**﴾ (آل عمران:٩٦). وهو أم القرى فى قوله تعالى: ﴿**وَهَذَا كِتَابٌ**

(١) من حديث ابن عباس- مسند ابن حنبل ٤ : ٢٣٥٤ تحقيق أحمد شاكر القاهرة ١٣٦٧-١٩٤٨.

أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها ﴾ (الأنعام: ٩٢).

٣-والبيت الحرام هو «مركز منطقة القلب» التى ذكر الله فيها أكبر عدد من الأسماء المحددة الواضحة المعالم:

(أ) فهناك أولا ثلاثة أماكن تجمعها الآية الكريمة: ﴿ **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ** ﴾.

(ب)وتجمع الآيتان الكريمتان أربعة أماكن أخرى من مناسك الحج : ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا** ﴾ (البقرة: ١٥٨). ﴿ **فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ** ﴾ (البقرة: ١٩٨).

وبهذا يصل مجموع هذه الأماكن فى منطقة القلب إلى سبعة فى النطاق الممتد من عرفات إلى مكة، وهو تركيز لا نرى نظيرا على الخريطة فى أى منطقة أخرى جاء ذكرها فى القرآن الكريم.

النطاق الأوسط

وحول منطقة القلب مجموعة أخرى من الأماكن ترتبط بغزوات النبى ﷺ:

١-وأول هذه الأماكن المدينة دار هجرة النبى، وجاء ذكرها فى أكثر من آية من آيات القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا** ﴾ (الأحزاب: ١٣) وهى خاصة بغزوة الأحزاب، ثم قوله: ﴿ **يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ (المنافقون:٨). وقوله: ﴿ **ما**

كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلاَ يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ (التوبة: ١٢٠). والآية الأولى عن غزوة بنى المصطلق على ماء يقال له المريسيع، والثانية عن غزوة تبوك.

٢- وخص الله غزوة بدر بثلاثة أماكن. نقرؤها فى قوله: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ (آل عمران: ١٢٣) و﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ (الأنفال: ٤٢). وهذه الأماكن جميعا تقع إلى الشمال الغربى من منطقة القلب.

٣- وإلى الجنوب الشرقى مكان واحد جاء ذكره فى قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ (التوبة: ٢٥- ٢٦).

هذه الأماكن تمثل من الناحية الجغرافية نطاقا حول منطقة القلب التى تضم الأماكن السبعة التى سبق عرضها. والأماكن فى دائرة الغزوات أقل تركزا وأوسع انتشارا. أى أن التركيز المكانى يقل بابتعادنا النسبى عن البيت الحرام.

الدائرة الثالثة

١- وهناك ملاحظة جغرافية تستوقف النظر وهى أننا إذا اعتبرنا البيت الحرام أو مكة «أم القرى» مركزا لدائرة نصف قطرها نحو ١٢٠٠ كيلو مترا، وجدنا اليمن والعراق والشام ومصر تقع على محيط هذه الدائرة أو قريبة منه. وفى نطاق هذه الدائرة أو الحلقة الثالثة وقعت معظم أحداث قصص القرآن.

٢–ومع هذا التوسط الجغرافى هناك ارتباطات تاريخية دينية بين أم القرى ومراكز الاستقرار القديمة فى العالم العربى، لعل من أروعها قصة إبراهيم. فحياة أبى الأنبياء ترتبط بالعراق والشام ومصر، وإلى جوار البيت العتيق كانت هجرته حيث أسكن من ذريته ليقيموا الصلاة. وإسماعيل – بعد استقراره فى مكة – تزوج من قبيلة جرهم المهاجرة من اليمن. ومن هذا النسب الطاهر الذى يضم هذه الأقطار جميعا جاء النبى ﷺ.

وهناك عدة محاور ترتبط بين مركز الخريطة ومناطق الاستقرار على محيط الدائرة الثالثة وأولها:

المحور الجنوبى

ويمتد من مكة إلى اليمن وترتبط بهذا المحور قصة هود بنى عاد. وكانوا عربا يسكنون الأحقاف. وفى هذا يقول الله تعالى: ﴿ **وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ (الأحقاف: ٢١). ويذكر ابن كثير أن الأحقاف: جبال الرمل وكانت باليمن بين عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها الشحر واسم واديهم مغيث[١]، ووصف الله مساكنهم بالضخامة فقال: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ** ﴾ (الفجر: ٦–٨). كما وصف مواطنهم بالغنى وتوفر وسائل الاستقرار فى قوله: ﴿ **وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ** ﴾ (الشعراء: ١٣٢–١٣٤).

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية،١: ١٢٠، دار السلفية والسعادة، القاهرة ١٩٣٢.

ونستطيع أن نرى هذا الغنى فى قصة أخرى ذكرها الله فى هذا المحور الجنوبى أو اليمنى، هى قصة سبأ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ (سبأ : ١٥-١٦) . ولا زالت آثار سد مأرب والحضارة السبيئة قائمة حتى الآن تدل على فن معمارى دقيق، فالصخور الرخامية الكبيرة كانت تنحت نحتا منتظما، ويبنى بها بطريقة لا نكاد نتبين منها تعدد الأحجار وإرساءها . وكانت تتماسك عن طريق بعض الأوتاد الرصاصية التى كانت تربط المداميك عن طريق ثقوب كما لاحظ هذا جلازر فى سد مأرب[١] وزار الدكتور أحمد فخرى هذه المنطقة عام ١٩٤٧ وعنى بوصف السد . وقد كان يؤدى غرضين : أولهما حجز المياه خلف وادى مأرب المتسع عند مكان يكاد يلتقى فيه جبلا بلق الأيمن والأيسر فى نقطة تسمى الضيقة، للانتفاع بالمياه مدة أطول من فترة مرور السيول، وذلك بتصريفها من البوابات حسب الحاجة . وثانى الغرضين رفع المياه أمام السد إلى علو خمسة أمتار على الأقل، حتى يمكن رى أراضى الوادى المرتفعة . ولهذا الغرض بنوا فى عرض السايلة عند الضيقة حائطا ضخما، جعلوا فيه فتحتين لتصريف المياه إحداهما إلى اليمين، وكانت تخرج منها ترعة كبيرة لتروى الجنة اليمنى، والأخرى وهى الأهم إلى اليسار، فكانت تخرج منها ترعة كبيرة تسير نحو ١١٦٠ مترا ثم تصل إلى حوض كبير يخرج منه أربعة عشر مجرى للمياه فى الاتجاهات المختلفة لرى الوادى المتسع[٢] وشاهدت هذه المنطقة

---

(١) رودوكانا كيس : الحياة العامة للدول العربية الجنوبية ، ص٥٢ وهو الفصل الثالث من : نيلسن وآخرون : التاريخ العربى القديم . الترجمة العربية لفؤاد حسنين القاهرة ١٩٥٨ .

(٢) أحمد فخرى : اليمن وآثارها ، ص١٣٤- بحث فى كتاب « العالم العربى » مقالات وبحوث : نشرته الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية القاهرة ١٩٤٩ .

استقرارا فى ظل نظام الرى الدقيق الذى يكفله السد حتى حدث سيل العرم، ومنذ ذلك اليوم اندثرت جميع البلاد الزاهرة فى هذه المنطقة(١).

وفى قوله تعالى: ﴿وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ إشارة لها دلالتها. فالبدو لا زالوا يستدلون على الماء الجوفى بشجر السدر.

فقلة السدر فى الآية تدل على قلة الماء وبالتالى قلة فرص الاستقرار البشرى فى المنطقة. ولا زال الاستدلال بشجر السدر على وجود الماء الجوفى متبعا عند رعاة السودان الشرقى كما سمعت هذا منهم، ويتفق هذا مع ما حفظه تراثنا من الاستدلال بالسدر على الماء؛ من ذلك: «أن قوما أقبلوا من اليمن يريدون النبى ﷺ فقالوا: يا رسول الله أحيانا الله ببيتين من شعر امرئ القيس بن حجر، قال: وكيف ذلك؟ قالوا: أقبلنا نريدك فضللنا الطريق فبقينا ثلاثا بغير ماء، فاستظللنا بالطلح والسمو، فأقبل راكب متلثم بعمامة وتمثل رجل ببيتين، وهما:

ولما رأت أن الشـــريعة همها ... وأن البياض من فرائصـــها دامـى

تيممت الماء الذى عند ضارج ... يضئ عليها الظل؛ عرمضها طامى

فقال الراكب من يقول هذا الشعر؟ قال: امرؤ القيس بن حجر؛ قال: والله ما كذب؛ هذا ضارج عندكم؛ قال: فجثونا على الركب إلى ماء كما ذكر..) ومن الطريف أن هذا حدث مع وفد من اليمن حيث حدثت قصة سبأ. ومع وجود اختلافات فى رواية البيتين وتفسير العرمض.. هل هو الطحلب أو صغار السدر والأراك كما يذكر لسان العرب(٢) فإن هذه الشواهد يقوى بعضها بعضا وتربط بين ما زال متبعا حتى الآن عند رعاة السودان الشرقى؛ وما جاء فى قصة سبأ، وما

(١) أحمد فخرى: اليمن وآثارها، ص١٣٥ - بحث فى كتاب «العالم العربى» مقالات وبحوث: نشرته الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية القاهرة ١٩٤٩.

(٢) لسان العرب، ٢: ٣١٤-٣١٥، مادة عرمض، ط بيروت..

حفظه تراثنا العربى القديم(١).

وتدلنا الآيات التالية فى القصة على غنى البيئة الجغرافية وقتئذ ﴿ **وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ** ﴾ (سبأ :١٨) فالقرى ومنازل السير كانت متصلة متقاربة بحيث أن المسافر كما يقول ابن كثير: (لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماء وتمرا، ويقيل فى قرية ويبيت فى أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه فى سيرهم)(٢) وقد تكون هذه القرى المباركة فى الشام أو اليمن . والذى تؤكده الآية غنى الإقليم ثم تدهوره وتمزق القوم عندما كفروا بأنعم الله، ﴿ **فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ** ﴾ (سبأ : ١٩) ولهذا تقول العرب فى القوم إذا تفرقوا: تفرقوا أيدى سبأ.

هاتان القصتان : هود وسبأ، هما أهم معالم المحور الجنوبى الممتد من مكة إلى اليمن. وقد تتصل به أيضا قصة نصارى نجران – فى بعض الروايات – وإن لم تصرح الآيات باسمها فى قوله تعالى: ﴿ **قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ** ﴾ (البروج :٤–٧) كما تتصل به أيضا ما جاء عن قوم تبع (الدخان :٣٧، ق :١٤).

وليس وراء الأحقاف مكان فى الجنوب جاء ذكره فى القرآن الكريم، وبهذا يمكن اعتبار خليج عدن والمحيط الهندى الحد الجغرافى الجنوبى لقصص القرآن.

---

(١) انظر: ديوان امرئ القيس ، ص ٤٧٥– ٤٧٦ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ،١٩٥٨ .
(٢) تفسير ابن كثير،٧–٢٠، ط المنار ، ١٣٤٧هـ .

المحور الشمالي

فإذا ما اتجهنا من مكة شمالا مررنا بالحلقة الوسطى حيث أماكن تتعلق بالهجرة وغزوات النبى ﷺ ، وتتابع القرى بعد يثرب شمالا بالانحراف نحو الغرب حتى الشام. وفى هذا الجزء الممتد من المدينة إلى أطراف الشام الجنوبية، يذكر الله عدة أماكن متتابعة على طريق التجارة جاء ذكرها فى سورة الحجر.

١- أشار الله فى قصة لوط إلى موطنه دون تصريح باسمه فى قوله: ﴿ **وجاء أهل المدينة يستبشرون** ﴾ (الحجر:٦٧) ثم وصفها بعد هذا بقوله: ﴿ **وإنها لبسبيل مقيم** ﴾ (الحجر:٧٦).

٢- والمكان الثانى قوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ** ﴾ (الحجر:٧٨-٧٩).

٣- والثالث فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ** ﴾ (الحجر: ٨٠-٨٣).

هذه هى الأماكن الثلاثة الرئيسية فى المحور الشمالى، وتضم قصص لوط وشعيب نبى مدين وصالح نبى ثمود. وكانت المنطقة الشمالية التى تضم هذه الأماكن تتمتع ببيئة أوفر غنى مما عليه الآن. ووصف الله هذا الغنى فى قوله عن ثمود: ﴿ **أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** ﴾ (الشعراء:١٤٦-١٥٠). وكانت هذه المدن مراكز هامة للتجارة والتقاء القوافل[١] ولم يكن لثمود

(١) نيلسن: التاريخ العربى القديم. الترجمة العربية لفؤاد حسنين، القاهرة، ١٩٥٨، ص٣٧، فصل عن بلاد العرب الشمالية.

أثر عند مجيء الإسلام[١] وفي غزوة تبوك نزل النبي بالناس الحجر عند بيوت ثمود وقال لأصحابه: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين»[٢]. ووصف الله الأماكن الواقعة على هذا المحور بقوله: ﴿ **وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ۞ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ (الصافات: ١٣٧-١٣٨) وهي بإمام مبين وبسبيل مقيم. ومن هنا يبدو جانب من قوة العبرة في ذكرها ومعاينتها.

وفي شمال هذه المنطقة ينقسم هذا المحور الشمالي إلى شعبتين: إحداهما تنحرف غربا إلى مصر، والثانية تتابع السير إلى الشام، ولنعرض كلا منهما على حدة:

مصـــر

وقد ذكر الله غنى مصر، ففي قصص موسى وفرعون نقرأ قول الله عن إعجاب فرعون: ﴿ **أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي** ﴾ (الزخرف: ٥١). وفي مصر جرت أحداث من قصص إبراهيم ويوسف وموسى وعيسى، وارتبطت جوانب من حياة اسماعيل ومحمد ﷺ، وعنيت الآيات الكريمة بقسمين من مصر عناية واضحة:

١- الوادي نفسه: ويمكن أن نرى هذا في سورة يوسف وقصة موسى. ووصفت الآيات حالة المجتمع المصري في عهد يوسف، ودورات القحط والغنى وعلاقة ذلك بفيضان النهر وأنواع الغلات، ثم علاقة الوادي بالبادية وحياة القصور وما فيها من ترف وانحلال، ثم انتصار الخير وإن طال الأمد. وفي خواتيم السورة

---

(١) مظفر الدين الندوي: المرجع السابق ص١٩٦.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١: ١٣٨.

دعوة من الله للناس نقرؤها فى قوله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَالَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف: ١٠٩) ونستطيع هنا أن نربط بين السير فى الأرض والتحديد المكانى الواضح فى سورة يوسف.

٢- شبه جزيرة سيناء: وقد ذكر الله هذا المكان فى قوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ ﴾ (المؤمنون: ١٨-٢٠). كما ذكره فى قوله: ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (التين: ١-٤). ومما جاء فى تفسير هذه الأماكن ما رواه الإمام ابن كثير فى تفسيره (ج٤ : ٥٢٦):

«هذه محال ثلاثة بعث الله فى كل واحد منها نبيا مرسلا من أولى العزم وأصحاب الشرائع الكبار. الأول محلة التين والزيتون وهى بيت المقدس التى بعث الله فيها عيسى بن مريم عليه السلام. والثانى طور سنين وهو طور سيناء الذى كلم الله عليه موسى بن عمران. والثالث مكة وهو البلد الذى من دخله كان آمنا، وهو الذى أرسل فيه محمدا ﷺ»

وبسيناء الوادى المقدس وجبل المناجاة حيث كلم الله موسى. وإن كان من الصعب التحقيق الدقيق لهذه الأماكن، فهى مناطق خلوية لم تستقر فيها الحياة بانتظام كمكة مثلا. وليست بها آثار تدلنا دلالة يقينية على أنها الأماكن التى دارت فيها أحداث قصة موسى.

وبهذا تبدو أهمية سيناء المكانية فى ناحيتين، أولاهما: قصة موسى، والثانية: ورودها فى آيات تعدد نعم الله على عباده.

الشــام

نعود مرة أخرى إلى مدين لنتابع منها طريقنا شمالا إلى الشام. والمكان المؤكد هنا هو المسجد الأقصى في قوله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ (الإسراء: ١). وهو موطن من المواطن التى كان يحكمها الروم، وقد خصهم الله بقوله: ﴿ **غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ** ﴾ (الروم ٢ : ٤).

وفى الشام كانت حياة أنبياء بنى إسرائيل، وجوانب من حياة إبراهيم وعيسى. ولم تصرح الآيات باسم القرية التى حدثت فيها قصة المؤمنين التى ذكرها الله فى سورة يس، وإن قال بعض المفسرين: إنها أنطاكية من بلاد الشام[١].

وقد يكون بيت المقدس المكان المقصود من قوله تعالى عن عيسى ومريم: ﴿ **وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ** ﴾ (المؤمنون: ٥٠)[٢] وإن قال بعض المفسرين إنها كانت فى مصر.

العــراق

فإذا أكملنا دورتنا شمالا فى الشام وصلنا إلى منابع الفرات، واتصلت الأرض الخصبة مع العراق حول بادية الشام. والعراق هو الحد الشرقى لقصص القرآن، وجاء الاسم القديم – بابل – فى قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ** ﴾ (البقرة: ١٠٢) وتتصل بالعراق قصص نوح وإبراهيم ولوط ويونس فى نينوى. وجاء ذكرها فى حديث النبى ﷺ مع عداس عند عودته من الطائف[٣].

---

(١) مثل الزمخشرى فى تفسير الكشاف ٤ : ٧ ، القاهرة ،١٩٤٦ .

(٢) تفسير الزمخشرى ٣: ١٨٩، ١٩٠ .

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ، ٣: ١٣٦ .

الملامح الرئيسية لخريطة قصص القرآن

بهذا تتضح أمامنا الملامح الرئيسية لخريطة قصص القرآن : فمركز الخريطة البيت الحرام. ويمتد من مكة محور جنوبى إلى اليمن، ومحور شمالى يتفرع شعبتين إحداهما غربية إلى مصر، والأخرى تتابع سيرها شمالا لتضم الشام وتدور حول باديته إلى العراق، وتحدها –من الشمال– الأطراف الجنوبية الإطار الجبلى الذى يمتد من الركن الشمالى الشرقى للبحر المتوسط إلى رأس الخليج العربى، ويمثل فى نفس الوقت – الحدود الشمالية للعالم العربى، ويقابلها الحدود الجنوبية فى خليج عدن والمحيط الهندى. أما الحد الغربى ففى غرب مصر. والشرق غير واضح تماماً وإن كان من الممكن أن يضم الجزيرة العربية كلها إلى الخليج العربى، وخليج عمان (شكل٣).

هذه هى الحدود التى يمكن أن نذكرها بكثير من الاطمئنان، فما قيمة هذه الخريطة بالنسبة إلى قصص القرآن والعبرة منه؟

الخريطة والعبرة من القصص

١–هناك ارتباط قوى بين منطقة القلب ومناسك الحج وقصص إبراهيم وإسماعيل ومحمد ﷺ . ولا زالت هذه المنطقة قلب العالم الإسلامى النابض بالأمر الإلهى لإبراهيم : ﴿ **وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ** ﴾ (الحج:٢٧).

٢–ثم هناك الرحلات التجارية التى قام بها سكان منطقة القلب إلى اليمن جنوبا والعراق والشام ومصر شمالا والتى تقرأ توقيتها فى قول الله : ﴿ **لإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ** ﴾ (قريش:١–٤) وكيف أن هذا التنظيم والتدبر فيه،

آية تدعو إلى الإيمان وعبادة الله.

٣- وفى الحلقة الوسطى أماكن الغزوات وترتبط جميعا بسيرة النبى ﷺ بما فيها من عبرة تمثل فيها غزوتا بدر وحنين جانبين متقابلين نقرأ خبرهما فى الآيتين: ﴿ **وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ** ﴾ (آل عمران: ١٢٣) و﴿ **لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا** ﴾ (التوبة: ٢٥) كما ترتبط بالمدينة أحداث غزوات متعددة. وقد يقال إنه من الممكن أن تمتد هذه الحلقة الوسطى شمالا لتضم الغزوات الشمالية. ومع أن هذه الغزوات ذكر الله أخبارها فى كتابه إلا أنه لم يصرح باسمها. وعلى هذا يدعونا التقيد بالأماكن التى ذكرها القرآن إلى الاقتصار على النطاق الذى سبق عرضه والذى توضحه الخريطة المرافقة.

فهذه الأماكن إذن من وسائل التأمل، وهى بهذا تساعدنا على زيادة الاعتبار من القصص.

قصص لم يذكر الله مكانها فى القرآن

ومع هذا لا يمكن القول بأن قصص القرآن كلها لها ارتباطاتها المكانية التى يمكن إدخالها فى حلقة من الحلقات السابقة.

المجموعة الأولى: قصص ما قبل الطوفان، وقد سبقت الإشارة إليها وهى سابقة لهذا الحدث الخطير فى قصص الأنبياء: الطوفان وما عفى عليها من آثار.

ولا أملك إلا التوقف فى عدم ذكر أماكن فيه - وإن كان عدم ذكر الأماكن يحمل وحده دلالة ضخامة الفيضان بحيث أن الآيات والأحداث اللاحقة له لم تشر - مجرد إشارة - إلى مكان سابق له.

المجموعة الثانية: قصص سورة الكهف، ولهذه المجموعة من القصص طابع متميز يمكن أن نربطه بسبب نزولها.

ويذكر المفسرون في سبب نزولها، أن كفار قريش استعانوا باليهود كي يخبروهم عن أمور من الكتب المقدسة، يمتحنون بها النبي ﷺ، وسافر منهم مبعوثون إلى المدينة حيث اجتمعوا بأحبار اليهود، فقال هؤلاء: «سلوه عن الروح وعن فتية غيبوا في القرون أمرهم عجيب، وعن رجل طاف المشرق والمغرب». وانحبس الوحي مدة اختلفوا في تقديرها، وقريش تمر على النبي ﷺ، وتقول: إن رب محمد قد هجره، حتى ضاق صدره ولم يجد مخرجا مما فيه إلا التسليم المطلق لله دون تعلق بموعد[1] ونزلت سورة الكهف وفي صدرها آيات يخفف الله بها عن نبيه ما به: ﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا**﴾ (الكهف:٦). ثم ذكر قصة أصحاب الغار، وذي القرنين، وبينهما قصة موسى والعبد الصالح، وهي قصة لم تكن محل سؤال من كفار قريش. ثم قصة آدم وقصة الصاحبين، وليس في سورة الكهف وقصصها ذكر لمكان محدد. هذا الإغفال أو التعميم الذي نراه في الأماكن، يمكن أن نراه في نواح أخرى من قصص الكهف، مثل عدد أهل الكهف، وفي قصة ذي القرنين عبارات عامة مثل مغرب الشمس، ومطلع الشمس، وبين السدين، ويأجوج ومأجوج.. حتى ذي القرنين ذكر بصفته دون اسمه، فهل تستطيع قصة موسى والعبد الصالح أن تلقي ضوءا على هذه الظاهرة!

أكاد أحس أن القصة تقابل بين اتجاهين:

الاتجاه اليهودي: وقد وصف القرآن اليهود بكثرة أسئلتهم وقسوة قلوبهم وقلة طاعتهم أنبياءهم واختلافهم عليهم. واستغرقت التفاصيل والاهتمام بها جانبا

(١) السيوطي: لباب المنقول في أسباب النزول ص١٤٤-١٤٥- القاهرة ١٩٣٥.

كبيرا من تفكير اليهود وحياتهم. ولعل فى وصف الهيكل فى سفر الخروج ما يعطينا صورة واضحة عن هذا النوع من التفكير[1].

الاتجاه الإسلامى: الذى لا يستهدف التفاصيل، وإنما يذكر منها ما تقتضى العبرة ذكره، نجد هذا فيما نزل من قصص فى مكة والمدينة وما قصه الله من أحداث الغزوات، وحياة النبى نموذج حى لهذا الاتجاه، ويمكن أن نقرأ هذا فى الحديثين الآتيين: «أنهاكم عن قيل وقال وكثرة السؤال» ، و«ذرونى ما تركتكم فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشىء فخذوا منه ما استطعتم»[2]، وهذا الاتجاه يعنى بالأهداف العامة والفهم السليم القريب دون تعسف. لهذا كانت إجابات النبى ﷺ تتناسب مع هذا الاتجاه الفكرى العام الذى نراه فى القرآن. فإذا لجأت قريش إلى يهود تستنصرهم على النبى، وتحاول أن تأخذ من الكتب القديمة مادة تمتحن بها الوحى، فلتأت الآيات من عند الله تحسم هذا الاتجاه، وليأت فى عدد أصحاب الغار: ﴿**سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلا قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا**﴾ (الكهف: ٢٢)، ولنقف كثيرا عند الأمرين الأخيرين فى هذه الآيات ثم نقرأ نهى الله نبيه عن الارتباط مع اليهود أو قريش بموعد يتعلق بالوحى: ﴿**وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا**﴾ (الكهف: ٢٣).

ولعلنا بذلك نستطيع أن ندرك جانبا من العبرة فى وضع قصة موسى والعبد الصالح بين قصتى أصحاب الغار وذى القرنين، فالصحبة بين موسى والعبد الصالح

---

(١) سفر الخروج – الإصحاحات ٢٥–٣٠.

(٢) بن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ص٢: ١٤١، القاهرة، طبعة المنيرية (بدون تاريخ).

تستمر ما دام موسى متبعا شرط العبد الصالح : ﴿ قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ (الكهف : ٧٠)، بعد أن مهد لذلك بتحذيره ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ (الكهف : ٦٧-٦٨).

وتأتى المشكلات - كما يقول القرطبى[١] - قريبة مما حدث فى حياة موسى : فخرق السفينة. . وقتل الغلام. . وإقامة الجدار دون أجر، تقابل إلقاء موسى فى اليم، وقتل القبطى، وسقيا موسى لبنات شعيب. ومع هذا لم يستطع موسى الصبر، وكان سكوته - إن سكت - فاتحًا لباب العلم. وسؤاله - حين سأل - مغلقا هذا الباب، وفى هذا يعقب النبى ﷺ على القصة بقوله : « وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما »[٢].

وأحسب أنه من هذه الزاوية نستطيع أن نلمس جانبا من النهج الذى ساق الله به قصص هذه السور بالذات، ومع هذا لا نكاد نجد مجموعة من قصص القرآن جاء فيها من الأقوال والتفاسير. . واتصلت بها إسرائيليات، قدر ما ارتبطت بمجموعة سورة الكهف. وحاول المفسرون تحديد مكان الغار والمدينة التى كان فيها الفتية. وذهب نفر منهم إلى أنها أفسوس فى آسيا الصغرى[٣]. ثم أخذوا فى تحديد شخصية ذى القرنين، وذهب نفر إلى أنه الاسكندر وأنه قورش. وتتبعوا رحلته إلى مطلع الشمس ومغربها وبحثوا عن مكان السد، وناقش مولانا أبو الكلام آزاد هذه المشكلة، وعرض الآراء السابقة. ثم ذهب إلى أن السد المقصود هو الجدار الحديدى فى مضيق داريال بالقوقاز[٤]. ومن قبل هذا ذهب الإدريسى فى خريطته « صورة

---

(١) تفسير القرطبى ،ص١ : ٣٣ ،الطبعة الثانية ،دار الكتب، القاهرة ،١٣٦٠هـ-١٩٤١م.

(٢) ابن كثير،البداية والنهاية ، ص١ :١٩٧ .

(٣) المسعودى، التنبيه والإشراف ، ص١١٦-١٢٧-،تحقيق الصاوى، القاهرة ، ١٩٣٨ .

(٤) مولانا أبو الكلام آزاد، شخصية ذى القرنين المذكورة فى القرآن ،مجلة ثقافة الهند، ص٢٢ ، سبتمبر ١٩٥٠،دلهى الجديدة ،الهند.

الأرض» إلى أن الصين موطن يأجوج ومأجوج، وأن سور الصين هو المقصود[1]، مع أن الله يصف السد بقوله: ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ (الكهف: ٩٧) وحدد المادة التى صنع منها. كل هذا قيل.

ويمكن أن نرى أمرًا مشتركًا بين معظم هذه الآراء رغم تباينها، وهى ذهابها إلى وقوع الأماكن المقترحة وراء الدائرة الثالثة التى سبق عرضها، أى أنها فى النطاق الجبلى الذى يحيط بها شمالا أو وراءه. نستطيع أن نطبق هذا بوضوح على بعض ما قيل عن قصة أهل الكهف، وعلى قصة ذى القرنين والفروض التى قيلت بشأن مكان السد فى جبال القوقاز. فهل كان اليهود يقصدون من تحدى النبى ﷺ بهذه القصص أن يخرجوا بأسئلتهم عن النطاق الذى ظل فيه قصص القرآن؟ كل الذى أستطيع قوله: إن الله سبحانه وتعالى بعد أن أنزل سورة الكهف لم يذكر شيئا عن قصة أهل الكهف وذى القرنين إلا إشارة فى قوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ (الأنبياء: ٩٦) والآية فى سورة الأنبياء وهى مكية أيضا. ولم يذكر الله قصة موسى والعبد الصالح بعد نزول الكهف مع نزول جوانب أخرى من قصة موسى. ولم تأت أية قصة أخرى خارج النطاق الذى سبق عرض حلقاته.

---

(١) صورة الأرض للشريف الإدريسى المتوفى سنة ٦٥٠هـ تحقيق الأستاذ محمد بهجة الاثرى والدكتور جواد على، مطبعة المساحة ببغداد ١٣٧٠هـ ١٩٥٠م.

نتائج هذا البحث

يمكن بعد هذا أن نلخص نتائج البحث فى النقاط الآتية:

١- يمثل المسجد الحرام مركز خريطة القصص القرآنى، وبه تعلقت أكبر مجموعة عن الأحكام والقصص.

٢- حول المسجد الحرام حلقة مركزية أو منطقة القلب، وجاء فيها ذكر أكبر عدد من أسماء الأماكن مرتبطة بمناسك الحج.

٣- وحول هذه حلقة وسطى تتعلق بالهجرة والغزوات.

٤- وحولها الحلقة الثالثة وتقع على محيطها اليمن والعراق (بابل) والشام ومصر.

٥- يربط المركز بالحلقة الثالثة محاور: أولها، محور جنوبى يمتد إلى اليمن، ثم محور شمالى يتفرع فرعين: أحدهما إلى مصر، والثانى يتابع سيره إلى الشام ثم يدور حول باديتها إلى العراق. ومن الممكن أن نجعل من العراق محورا متميزا، وإن كان الأولى ضمها إلى المحور السابق لعامل القرب المكانى وخطوط الهجرة فى قصص القرآن من العراق إلى الشام.

٦- هذه الأماكن تنتظمها وحدة جغرافية تتضح فيها ظاهرتا العلاقات والتوزيعات، وجانب كبير منها يدخل فى نطاق رحلتى الشتاء والصيف بحيث أصبحت معظم أماكن العبرة واضحة للمسلمين، وقد أمرهم الله بالسير فى الأرض. فالأماكن بهذه الصورة أداة من أدوات الاعتبار فى القصص القرآنى.

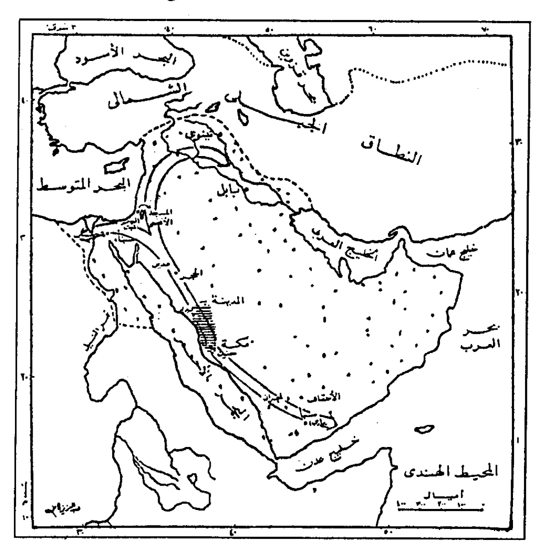
٧- هناك مجموعتان من القصص لم يذكر الله فى أولاهما أمكنة، وهى المجموعة السابقة للطوفان وتضم -فيما تضم- قصص الأبوين آدم ونوح. ثم مجموعة

سورة الكهف، وورد فيها إشارات دون تصريح، وهى تحدد لنا منهاجا فى فهم الكتاب.

٨–وهناك مجموعة عني بها القرآن ولم يرد لها ذكر في التوراة ، وهي مجموعة أنبياء العرب : هود في اليمن ، وصالح في ديار ثمود ، أما قصة اسماعيل فجاءت مجملة في التوراة مفصلة في القرآن كما عنى القرآن بحياة النبي ﷺ ، مولداً وهجرة واستقراراً في قاعدة المدينة المنورة.

٩–هناك تناسب في التوزيع الجغرافي بين توسط مركز القصص القرآني ، في البيت الحرام ومكة المكرمة ، وما يصدر عنها من محاور شمالية وجنوبية ، وإن برزت أهمية المحور الشمالي لارتباطه بمجموعة قصص بني اسرائيل وما سبقها من نبوات تضم العراق والشام ومصر والنطاق الجبلي الشمالي وراء الحلقة الثالثة.

المجال الجغرافي لقصص القرآن



منطقة القلب الحلقة الوسطى الحلقة الثالثة ...... حدود النطاق الجبلي الشمالي

الفصل الثانى

قيـــام الإســـلام



إطـــار البحــث

١– يذكر الله عربية القرآن فى أكثر من عشرة مواضع فى كتابه مثل قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء:١٩٢–١٩٥). وقد نزل الوحى على النبى ﷺ فى بيئة معينة هى شبه الجزيرة العربية. ولم تكن هذه البيئة فى غنى مناطق الاستقرار الرئيسية حولها: فارس فى الشمال الشرقى، والروم فى الشمال الغربى. ولم يكن العرب الذين حملوا أمانة هذا الدين فى أول أمره يقربون عن عشر السكان المتحضرين المستقرين حولهم، وتصغر هذه النسبة – عمليا – إذا أخذنا فى اعتبارنا فرص الحياة المتاحة للأفراد: ففى فارس والروم كانت هناك فرص واسعة فى الزراعة والصناعة والتقدم المادى وقت السلم. وكانت هناك العدة والسلاح والدواب وقت الحرب. هذا إذا أخرجنا من حسابنا – مؤقتا – قوة الإيمان، وكان لها أثرها العميق فى قلب موازين المعارك التى دارت بين العرب ودولتى الفرس والرومان.

٢– وفى شبه جزيرة العرب – نفسها – لم يأت الإسلام من أطرافها الجنوبية حيث قامت فى اليمن الحضارات المعينية والسبئية، وأنشئت السدود ومشروعات الرى والتخزين. كذلك لم يأت من البوادى حيث الرعاة المتنقلون ولا من دول الحدود فى الشمال الشرقى حيث كان يحيا المناذرة، وفى الشمال الغربى حيث الغساسنة، على أطراف دولتى الفرس والرومان.

٣– كذلك لم ينزل فى مناطق الحضارات المستقرة القديمة فى أسيا الموسمية: الهند؛ والهند الصينية، واليابان. ولا فى المناطق الرعوية فى وسط آسيا، و صحارى شمال إفريقية.

٤- وكانت عشيرة النبى الأقربين - وهى التى كلفه الله إنذارها أول الأمر - تستشعر وتتساءل عن أمور تحتاج إلى شرح فى أمر الرسالة والرسول:

(أ)فقد حاولوا أن يربطوا بين الرسالة والغنى المادى، وخاطبوا النبى قائلين: «قد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلاداً، ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشاً منا، فاسأل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق»[١]. وفى هذا نزل قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنْ الأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً** ﴾ (الإسراء: ٩١). وأخذوا يعدون مطالبهم فما كان من رد النبى إلا ما قصه الله: ﴿ **قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً** ﴾ (الإسراء: ٩٣).

(ب) وكان النضر بن الحارث ممن ناصبوا النبى العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس. فكان إذا جلس رسول الله مجلسا فذكر فيه بالله، خلفه فى مجلسه إذا قام ثم قال: «إنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلم إلي فأنا أحدثكم أحسن من حديثه» ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسنفديار[٢] وفيه نزل قول الله: ﴿ **إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ** ﴾ (القلم: ١٥).

فالعرب كانوا يعرفون غنى فارس والروم وما فيها من أنهار، ويعرفون بعض أخبار حضاراتها القديمة ومن عاش فيها من الملوك والقادة، حتى رأى بعض كبار قريش فى قصص فارس ما قد يصرف الناس عن الاستماع إلى القرآن.

٥- ثم لما اشتد ضغط قريش على المسلمين، قال النبى لأصحابه: «لو خرجتم

(١) تفسير ابن كثير، ص٣: ٦٣، ط التجارية ١٣٦٧هـ- ١٩٤٨م.
(٢) سيرة ابن هشام، ص١: ٣٢١، ط الحلبى، ١٣٥٥هـ- ١٩٣٥م..

إلى الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحدا، وهى أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه»[1]، فخرج المسلمون إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة فرارا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة فى الإسلام. والذى يستوقف النظر من الناحية الجغرافية الخالصة، أن النبى لم يهاجر إلى الحبشة مع أنه دعا أصحابه إلى ذلك، وكانت السبيل مفتوحة أمامه. ولو كان هدف الهجرة مجرد الفرار من الظلم، لكان من المحتمل أن يهاجر النبى مع أصحابه إلى الحبشة، ولكنه لم يفعل. وظل فى مكة يتحمل الأذى والاضطهاد ويعرض نفسه على القبائل، حتى استجاب له الأوس والخزرج، فكانت هجرته إلى المدينة، وهى هجرة داخلية فى الجزيرة العربية.

هل نخرج من هذا بأن شبه الجزيرة العربية كانت مقصودة بالذات لتكون مهدا للإسلام؟ ومن أجل هذا لم يهاجر النبى خارجها مع توافر فرص الهجرة إلى الحبشة، وظل فى مكة حتى كانت هجرة المدينة فأصبحت قاعدة انتشر منها الإسلام إلى شمال الجزيرة العربية، حيث تشعبت مسالك الفتح فى أرض الروم والفرس، وإلى الجنوب فوق أمواج المحيط الهندى يحمله عرب الجنوب، فكانت سفنهم بهذا تقابل إبل عرب الشمال فى نشر الدعوة الإسلامية.

لابد - إذا أخذنا بهذا - من مميزات جعلت أرض العرب مهدا لخاتم الأنبياء والأديان. مهد ضم الإسلام فى المرحلة الأولى منْ مراحل نموه، وظلت المدينة فيه قاعدة فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ثم انتقلت إلى الكوفة فى عهد عليّ، ومنذئذ ظلت قرونًا تنتقل بين دمشق وبغداد والقاهرة وبقيت للجزيرة العربية منزلتها العميقة فى تاريخ الإسلام وشعائره فكأن الإسلام بذلك زرع مبارك ألقيت بذرته فى مكة، ثم نقلت إلى المدينة حيث أخرج الزرع شطأه واستغلظ واستوى على سوقه، وامتدت فروعه السامقة لتظل الأرض بين المحيطات الثلاثة الأطلسى،

---

(١) ابن هشام، ١: ٣٤٤.

والهادى والهندى وغرست بعض بذورها فى العالم الجديد وفى استراليا.

وصفوة القول: أن الأرض التى نزل فيها الوحى لم يبرحها النبى ﷺ مهاجرا إلى غيرها، وإن بارحها فى طفولته مع قوافل التجارة، وأن القوم الذين وجه إليهم خطابه كانوا أول من دعى إلى الحق الذى جاء به.

والأرض والإنسان هما العنصران الرئيسيان فى أية دراسة جغرافية، وحيث يجتمعان تبدو على وجه الأرض ملامحه المعبرة(١).

مصادر البحث ومنهجه

١- والإحاطة الدقيقة بكل الأسباب التى جعلت من الجزيرة العربية مهدا للإسلام وقت ظهوره، مطلب قد يكون متعذر المنال. ويرجع هذا إلى أسباب متعددة من أهمها: حاجتنا إلى مصادر متنوعة متكاملة عن المقومات الطبيعية والبشرية لهذه البيئة والبيئات الأخرى التى كانت مهدا للأديان الكبرى كالمسيحية فى إمبراطورية الروم، والزرادشتية فى فارس، والهندوكية والبوذية والشنتوية الكنفشيوسية فى الشرق الأقصى. ومع أن الأبحاث الأركيولوجية والأنثروبيولوجية - وهى المتعلقة بالآثار والسلالات - تكشف كل يوم جديدا، إلا أنه لا زالت هناك مناطق - فى البيئات بعامة والبيئة العربية بخاصة - بحاجة إلى جهود علمية ضخمة لتوضيح خصائصها وإلقاء أضواء جديدة على جغرافية الإسلام.

٢-وعوامل الدراسة الجغرافية متطورة. وبعض هذه العوامل أكثر ثباتا واستقرارا من البعض الآخر. فالموقع فى ذاته ثابت، ولكن تتطور أهميته النسبية مع تطور البيئة التى نعنى بدراستها والبيئات الأخرى ذات العلاقة بها. فمركز الثقل

(١) Gressey (1951), Asia's Lands and Peoples, p. 10. Mc Graw-Hill, New York

الاقتصادى فى الجزيرة العربية كان فى الحجاز، وهو دينى الطابع. ومرت قرون ثم برزت أهمية شواطئ الخليج العربى بعد كشف البترول فى العصر الحديث. وأصبح هناك اقتصاد مزدوج بترولى فى الشرق، له – مهما طال – صفة مؤقتة. ودينى فى الغرب له صفة البقاء. وبرزت أهمية المناطق التى تمر بها أنابيب البترول فى الشمال. وأثر هذا على توزيعات السكان ومدى استقرارهم، ونوع الحرفة التى يمارسونها وسلطة الحكومة على القبائل، وتطور طرق المواصلات والثقافة من حيث المستوى المتنوع، ومستوى الدخل القومى، والتجارة الخارجية، والتطور العمرانى(١).

وقبل الإسلام كان لهذا الاقتصاد طابعه الدينى المحلى الذى لا يتعدى القبائل العربية فضلا عن الوساطة التجارية بين الشمال والجنوب.

٣– ومن أهم المزالق التى يتعرض لها الباحث فى مثل هذا الموضع أن يختار من الحقائق التاريخية ما يتفق مع وجهة نظره الخاصة. وقد أشار «هنتجتون» عند دراسته العلاقة بين التاريخ والجغرافيا إلى هذا الخطر، ودعا الباحث إلى العناية بالدراسة الإقليمية التفصيلية التى توضح المميزات الخاصة للأقاليم التى يتناولها البحث. وأن يحدد القطاع الزمنى الذى يدرس عنده تفاعل الظاهرات الجغرافية وبخاصة العلاقات المكانية(٢).

هذا القطاع الزمنى إذا كان فى الحاضر كانت دراستنا داخله فى نطاق الجغرافيا بمدلولها العام. وإذا كان فى الماضى كانت دراستنا فى نطاق الجغرافيا التاريخية، وهى ليست فرعا من فروع الجغرافيا، كالجغرافيا الاقتصادية أو السياسية، وإنما هى

(١) (Weigert & others (1956), Principles of Political Geography, pp. 204-205, Appleton-Century., New York).

(٢) (Hargtshorne (1956), The Nature of Geography, pp. 175-176, Lancaster, Pennsylvania.

جغرافيا كاملة قائمة بنفسها لها كل هذه الفروع، وتعنى بتفاعل الظاهرات عند قطاع زمنى معين. وعلى هذا الأساس يلاحظ (هتنر) أن الجغرافيا التاريخية لأى إقليم ممكنة لأى عصر من عصوره على حدة. أى أنه ليست هناك جغرافيا تاريخية واحدة، وإنما هناك جغرافيات تاريخية متعددة[١].

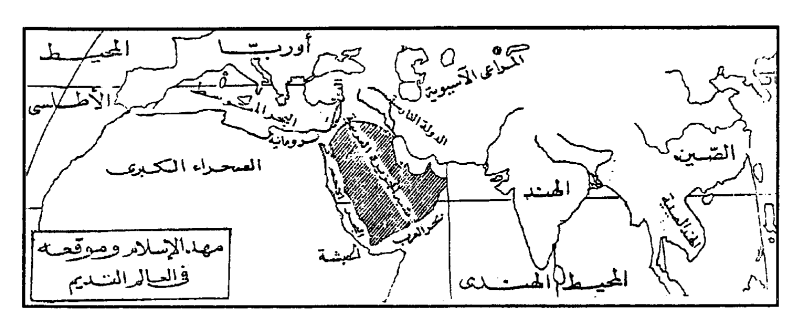
٤- وفى دراستنا سنعنى بدراسة شبه الجزيرة العربية مع مقارنتها بالمناطق الآتية:
(أ) أشباه الجزر ومناطق الاستقرار الرئيسية فى آسيا الموسمية.
(ب) مناطق الاستقرار حول الجزيرة العربية : فارس والروم والحبشة.
(ج) وسنقارن بينها - كصحراء - وبين صحارى العالم القديم فى آسيا وشمال أفريقيا.
(د) فإذا فرغنا فى هذا قارنا بين بيئات الجزيرة لتوضيح مميزات مهد الإسلام.

٥- وأعود لما سبقت الإشارة إليه فى الفصل السابق عن المدخل الجغرافى لقصص القرآن الكريم من أن هذا البحث ليس فيه حتم جغرافى يعتبر قيام الإسلام فى هذه البيئة نتيجة لازمة لعوامل طبيعية وبشرية خاصة ويربط بينها وبينه ربط العلة بالمعلول، وإنما هو محاولة لدراسة المقومات الجغرافية لهذه البيئة وقت ظهور الإسلام وعلاقتها بقيامه.

٦- وقد يطيب لبعض الباحثين أن يغمطوا هذه المقومات حقها، ويحاولوا تصوير البيئة الجغرافية فى الجزيرة العربية وقت ظهور الإسلام كأنها كانت فى الحضيض، ويسلبوها كل مميزاتها الطبيعية والبشرية ليبرهنوا -بعد هذا- على عبقرية الإسلام الذى أخرج من أدنى البيئات أرقى الحضارات. وهو اتجاه يقترب كثيرا من اتجاهات الشعوبية القديمة، إن لم يطابقها فى كثير من منازعه[٢]. وليس

(١) المرجع السابق ،ص١٨٥ .
(٢) يراجع فى شبهات الشعوبية والرد عليها: الألوسى «بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب» ١ : ١٥٩- ١٨٤، ط. الرحمانية ،١٩٢٤ .

من الإنصاف فى شيء أن المنهج. وهو فى ذاته متهافت لا يتماسك أمام النقد. ويكفى أن نذكر فيه كيف اختار الله نبيه ﷺ من صفوة البشر وأعرق القبائل والبيوت، وبعثه من جوار أول بيت وضع للناس. ولو صح منهج القائلين بذلك القول – وهو غير صحيح – لكان الأولى أن يأتى الرسول غير متمتع بهذه المزايا، ولا منحدراً من هذه الأصول الطاهرة لتكون المعجزة أتم وأشمل!!.



٧– ليس معنى هذا أن الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام كانت خالية من بعض نواحى الضعف. فلم يحدث فى أى عصر من العصور مهما كانت درجة رقيه أن فرغ العالم من الشر، والصراع بينه وبين الخير. والموقف المتزن – فيما أحس– هو أن نعرض الحقائق عرضًا موضوعيًا، ثم نحاول أن ندرس تفاعلها إيجابا وسلبا وقت ظهور الإسلام.

١– شبه جزيرة:

إذا نظرنا إلى خريطة العالم القديم أمكننا أن نميز فى آسيا بين قسمين كبيرين: القلب اليابس الداخلى وراء النطاق الجبلى الضخم، ومجموعة من أشباه الجزر ومناطق الاستقرار الرئيسية تشمل اليابان، والصين، والهند الصينية، والهند، وشبه الجزيرة العربية.

اليابان:

وتقع اليابان فى الطرف الشرقى من آسيا ويفصلها عن الصين نحو خمسمائة ميل. وإلى شرقها المحيط الهادى باتساعه الضخم. وقد ظل المحيط الهادى طريقا محدود الأهمية - كمعبر بشرى - حتى عهد الكشوف الجغرافية، ومن ثم أخذت تتطور الأوضاع فيه مع تطور وسائل المواصلات العالمية حتى أصبح طريقا رئيسيا للملاحة. وأصبحت اليابان فى منتصف الطريق بين جنوب شرق آسيا وغرب أمريكا. ومن ميزات الحياة الجزرية سهولة التنقل، ولكنها توفر لسكانها نوعا من الحماية النسبية. ونحو ٦ : ٧ من أرض اليابان جبال أو تلال لا تخطئها العين هناك فى أى مكان، وكان اليابانيون من قديم، شعبا مختلطا تأثر بمؤثرات حضارية وافدة من آسيا. وتعود اليابانيون استعارة الحضارات وتشكيلها بما يتفق مع مصالحهم[١] وظلت اليابان قرونًا طويلة فى عزلة عن العالم الخارجى حتى عن الصين. وكانوا لا يعرفون قوة خارجية، لهذا رأوا حضارتهم مثالية. وعندما اصطدم بهم الغرب فى القرن التاسع عشر ساءهم ما رأوا من قلة تقدير لفنونهم التقليدية، وتحول جانب من نظرتهم السابقة لأنفسهم إلى الوضع المقابل، وسرعان ما أخذوا فى تقبل هذه الحضارة الوافدة والاستفادة منها ، والتفوق عليها فى بعض النواحى.

والذى يهمنا من هذا، أن اليابان ظلت فى تاريخها الطويل -قبل القرن التاسع عشر- فى عزلة كبيرة عن العالم. ساعد على هذا تطرف موقعها الجزرى وقلة اتصال سكانها بمن حولهم، واكتفاؤهم بما عندهم من حضارة جاءت بذورها من اليابس المقابل والأجزاء الجزرية الجنوبية، ثم انتقلت نحو الشمال حتى عمت الجزر اليابانية.

---

(١) كريسى ،١٩٥١: ص ١٧٠ .

الصـــين:

وتذكر أخبار العرب أنهم كانوا على صلة بالصين فى عهد النبوة وقبله. وكانت وفود الصين والهند والروم تصل إلى بلاط كسرى. ويلقاهم هناك عرب الحيرة، ويعلمون من أمر الصين ومجتمعها، وكثرة صناعات أيديها، وفروسيتها، وهمتها فى آلة الحرب وصناعة الحديد، وأن لها ملكا يجمعها[1]. وكانت الحيرة ظهر البرية على مرفأ سفن البحر من الهند والصين وغيرهما[2]. وظلت السفن تصل خلال القرن الأول الميلادى والقرون الثلاثة التالية إلى الموانى الدنيا فى الخليج العربى، ثم حلت «هراة» محل هذه الموانى بعد هذا. وكان موقعها أكثر ملاءمة لالتقاء الخطوط البحرية بالقوافل البرية التى تخترق بادية الشام آتية من دمشق وتدمر[3].

وتاريخ الصين ثمرة من ثمار جغرافيتها، ذلك لأن الصين -كما يسميها كريسى- واحة تعتمد اعتمادا يكاد يكون كاملا على نفسها، ومعزولة عن بقية الجنس البشري. وإلى عهد الكشوف البحرية كانت تحيط بالصين مناطق خالية تحول دون سهولة الاتصال بالعالم الخارجى: هناك الهضاب العالية والصحارى الجافة والغابات المدارية. وإلى شرقها أوسع المحيطات. كل هذه العوامل عزلت الصين وساعدت فى نفس الوقت على وحدتها. وكانت الرحلة بينها وبين الهند تستغرق شهورا. لهذا كان من الطبيعى أن يعتقد الصينيون فى أنفسهم أنهم يعيشون فى «المملكة الوسطى»[4].

وكانت جبهة الصين الشمالية أخطر هذه الجبهات جميعا ومنها كان المغول يغيرون على الصين. ومن أجل هذا بنوا السور العظيم ليتصل بالأجزاء القديمة التى

---

(١) الألوسى، ج ١، ص ١٤٧-١٤٨، ط ١٩٤٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٢ :١٧٥.

(٣) Huzayyin, S., (1942), Arabia and the Far East, p. 100, Cairo.

(٤) كريسى، ص ٣٧، ١٩٥١.

سبق أن بناها الإمبراطور « شن شية » فى القرن الثالث قبل الميلاد . ولم ينجح هذا السور فى أداء مهمته، ذلك لأن الأمطار إذا سقطت غزيرة لم يرض الصينيون أن يحصروا أنفسهم فيما يليهم من الأرض، ويعبرون عندئذ السور إلى الشمال، وإذا ما حدث جفاف لم يرض المغول أن يحصروا أنفسهم شمالا وعبروا السور إلى الجنوب .

ولم يصل إلى الصين من الرحالة إلا عدد محدود من أبرزهم « ماركو بولو » البندقى فى القرن الثالث عشر، وعمل فترة فى بلاط الخان، وجمع معلومات كثيرة عن الصين(١) .

كما وصل إليها بعض المبشرين من الجزويت . وقلما كان يهاجر الصينيون غربا . وقد حدث فى عام ١٢٨ق.م أن عبر الرحالة الصينى « شانغ شيبه » جبال البامير ووصل إلى بخارى . وكان الرحالة الصينى « فاهسين » أول من وصل من قومه إلى الهند فى عام ٤١٣ بعد الميلاد، واستطاعت بعض السفن العربية أن تصل إلى « كانتون » و « هانكاو » فى عام ٣٠٠ ميلادية، أى قبل الإسلام بنحو ثلاثة قرون ونصف .

وكان مدخل الصين الأمامى « بوابة اليشب » فى الغرب . وقد أطلق عليها هذا الاسم لأن القوافل التى كانت تحمل ذلك الحجر الكريم من جبال « كون لن » كانت تمر منها . كما كانت تحمل تلك القوافل الحرير والخزف . بهذا كان وجه الصين نحو قلب آسيا . ولم يكن لليابان وقتئذ أهمية كبيرة للصين ولم تحول الصين وجهها نحو الشرق إلا فى العصور الحديثة، بعد نمو الموانى الهامة (كشنغهاى)، وأصبح المحيط طريقا رئيسيا بعد أن كان حاجزا أمام الصين وتراجعت « بوابة اليشب » من

---

(١) (Sykes (1935), History of Expioration, pp. 77-83. Routledge, London).

مدخل رئيسى إلى فصل من فصول تاريخ الصين(1).

فالصين –إذن– ظلت مكتفية بنفسها قرونا طويلة. وظلت اتصالاتها محدودة بالعالم الخارجى مقصورة –إلى حد كبير– على الأجزاء القريبة كما سنرى بعد قليل.

الهنـــد :

وليس فى آسيا إقليم كبير له من العزلة الجغرافية ما لشبه القارة الهندية الباكستانية. ويمكن اعتبارها – لأسباب كثيرة – قارة قائمة بذاتها. وإذا كانت المحيطات تعزلها من الجنوب والشرق والغرب فإن جبال الهملايا بارتفاعها وغطائها الثلجى تكون لها محيطا قطبيا شماليا. وتجعل من الهند جزيرة هائلة تحيط بها المياه السائلة من ثلاث جهات. والمتجمدة فوق الجبال من جهة رابعة ولا تدع إلا مسالك ضيقة محدودة تربطها بما وراءها من العالم(2).

وقد ظلت الهند – باستثناء بعض الموانئ والمداخل – معزولة إلى حد كبير عن العالم. وحتى الآن ليس هناك خط حديدى من خطوط الدرجة الأولى يعبر حدودها. وبهذا كان شبه القارة عالما جغرافيا معزولا عزلة حادة عن بقية العالم.

والصلة البرية التى تربط الهند بالعالم الخارجى محصورة فى الركنين الشمالى الشرقى والشمالى الغربى، وبينهما فروق كبيرة، فالركن الشمالى الشرقى أشد ارتفاعا ووعورة من نظيره الشمالى الغربى، وهو أبرد أجزاء الهند ، وتغطيه الغابات. وبين الجبال المرتفعة أودية عميقة حفرتها المجارى المائية النابعة من الهملايا فجعلت دون الاتصال عقبات لها خطرها. من أجل هذا لم يقم هذا المدخل بدور كبير فى حياة الهند يمكن أن يقارن بالمدخل الشمالى الغربى ولم تكن هناك

(1) كريسى ،ص ٣٨، ١٩٥١ .

(2) كريسى ،ص ٤١١،ط ١٩٥١ .

صلات قوية غيره بين الصين والهند وهما أضخم منطقتى استقرار فى آسيا الموسمية[١].

أما المدخل الشمالى الغربى فقد قام بأخطر الأدوار فى تاريخ الهجرات البشرية إلى الهند، فهو جاف لا تعترضه الغابات. وتتصل الهند عن طريقه بحضارات فارس والهلال الخصيب. من أجل هذا شاهد تاريخ الهند فيضاً من التجار والغزاة والملاحين ينساب عبر المدخل الجاف إلى سهول الهند الخصيبة، وكثيراً ما كان وادى السند ميدان صراع بين سكانه والقوات الغازية المقبلة من المرتفعات الوسطى، كما شاهد قيام دول متعاقبة فيه[٢].. والهند –كالصين– تخلو من بحر داخلى كالبحر المتوسط. ولا تتجمع الجزر قرب شواطئها، ومناخها دافئ وإنتاجها موفور. فليس هناك إذن ما يدفع أعدادا كبيرة من أهلها إلى ركوب البحر[٣]. وعلى عكس الوديان الشمالية الخصبة التى دار فيها الصراع بين المستقرين والوافدين، كانت الأطراف الجنوبية البعيدة عن المداخل مناطق معزولة قليلة التأثر بالأحداث الشمالية. ولهذا سكنتها العناصر الدرافيدية التى كانت تسكن الهند كلها من قبل، ثم دفعتها الموجات المتتالية من الشمال إلى الجنوب حيث عاشوا محافظين على قوميتهم وحياتهم البسيطة[٤].

وعاشت الهند حياتها تستقبل العناصر الوافدة ولا تدفع سكانها إلى الهجرة إلا بقدر. وتغير هذا بعد التطور الاقتصادى الحديث فى النطاقات المدارية فى آسيا وأفريقيا، ونمو الصلات بين الشاطئين الأفريقى والآسيوى.

---

(١) Fairgrieve, J., (1941), Geography and World Power, pp. 254-255, London)

(٢) (Semple, E. C. (1911), Influences of Geographic Environment, p. 304 London)

(٣) فرجريف،ص٢٤٨،ط ١٩٤١م.

(٤) سمبل، ص٤٠٣، ١٩١١م.

الهند الصينية :

وتقع بين الهند والصين. ويبدو من الإسم أنها منطقة انتقال، وإن كانت لها خصائصها في السطح والمناخ. وتتكون من منطقتين أساسيتين: أشباه الجزر.. والجزر، ولم يعرف هذا الإقليم الوحدة السياسية رغم عراقة تاريخه، فالأدوية النهرية تشق الجبال مكونة أودية. ولكل من هذه الأنهار دلتاه. وتبرز أهمية الإقليم الحالية في ثرواته الاقتصادية وموقعه الاستراتيجي كمنطقة خطيرة من مناطق الصراع بين المعسكرين الشرقي والغربي . ويجمع سلالات بشرية متباينة ساعدتها الظروف الجغرافية على أن تحتفظ كل منها بخصائصها واستقلالها. وتتعرض هذه الجزر لضغوط بشرية من الصين والهند، وزاد ضغط الصين بعد قيام الإمبراطورية فيها وإرسالها بعض جيوشها إلى الهند الصينية في عهد أسرتي «تشن وهان». وظلت أنام تحت سيطرة الصين من القرن الثاني قبل الميلاد إلى القرن العاشر الميلادي، وأدى هذا إلى انتشار النفوذ الصيني بين سكان أنام. أما انتشار النفوذ الصيني بحرا نحو الجنوب، فكانت له طبيعة مختلفة، كما كان في وقت آخر. ومع أن فنون بناء السفن والملاحة تمت على شواطئ فوكين وكانتون منذ أوائل العهد المسيحي، فإن نشاط هؤلاء الملاحين ظل -عدة قرون- محليا دون أن يمتد إلى البحار البعيدة، وشمل التوسع البحري هجرة بعض الصينيين بأعداد محدودة. وهي الهجرة التي قويت في العصور الحديثة(١). والصينيون هم الآن العنصر المهاجر الرئيسي في الهند الملاوية. هذا بالإضافة إلى الأوربيين والعرب، ولهم تأثير ثقافي كبير في هذه الأجزاء من آسيا. وتأثرت الهند الصينية بهجرات من الهند قام بها الملاحون والمغامرون بحثا عن الذهب، واستطاع نفر من هؤلاء أن يكون أرستقراطية حاكمة في إندونيسيا والملايو، وانتشرت البرهمية هناك من القرن الأول

---

(١) حزين، ص٧٩، ١٩٤٢م.

الميلادى، وجاءت بعدها البوذية بنحو خمسة قرون، وظهرت آثار هذا الالتقاء فى النظم السياسية والفنون المعمارية[1]، ولا يزال هذان التأثيران: الهندى والصينى يعطيان الإقليم وضعا حضاريا خاصا، وإن لم يمحوا المقومات المحلية.

وقد قام سكان الهند الملاوية بدور كبير فى الملاحة المحلية والبعيدة، وامتد مسرح نشاطهم من جنوب اليابان إلى شرق أفريقيا، حيث أنشأوا مراكز استقرار ونشروا ثقافتهم ولغتهم، ومن الممكن أن نقارن بين دورهم فى المحيط الهندى والبحار الشرقية، ودور الفينيقيين والإغريق فى البحار الغربية.

وصفوة القول: إن أهمية مركز الهند الملاوية أنها كانت محطة تجارية بين شرق وغرب آسيا، قام ملاحوها بدور واضح كحملة حضارة[2].

مدى انتشار أديان آسيا الموسمية

وقد لاحظ الأستاذ فلير فى دراسته التوزيع الجغرافى للأديان الكبرى فى الهندوكية والبوذية وغيرهما في أديان الصينيين واليابانيين، أنها ترتبط جميعا بالفكر البوذى، وتكون فيما بينها مجموعة متماسكة يعتنقها أكثر من نصف البشر. ولكن لم يستطع أى دين منها أن ينتشر خارج نطاق الأراضى الموسمية فى آسيا إذا استثنينا منغوليا والتبت[3].

وبعبارة أخرى: لهذه الأديان رغم كثرة معتنقيها صبغة محلية، تكاد تكون مقصورة على آسيا الموسمية. وقد ظهر من العرض السابق كيف أن الصين وشبه

---

(١) نفس المرجع، ص٨٠ .

(٢) حزين، ص٨١ .

(٣) Fleur e. H. J., (Nov. 1951), The Geographical Distribution of the majot Religions, p. 9, Bull. de la Soc. Geog. D'Egypte. Tome xxiv).

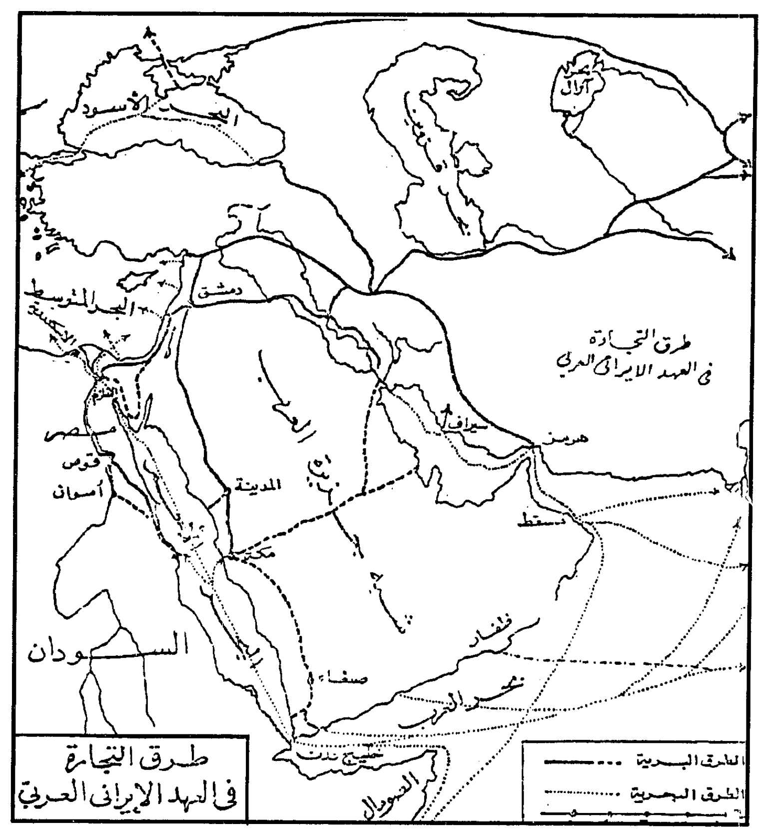
القارة الهندية الباكستانية – باعتبارهما أكبر أقاليم التركز البشرى فى آسيا الموسمية – كانت مناطق جذب حضارى، ولم تدفع أبناءها إلى الخارج إلا فى حدود ضيقة. وهذا الدفع – فى فترات حدوثه – كان مقصوراً فى العصور الوسطى ووقت قيام الإسلام على الأجزاء القريبة، ومع نشاط سكان الهند الصينية فى التجارة، ووجود ذاتية خاصة لهذه المنطقة، إلا أنها كانت متأثرة إلى حد كبير بقوتى الصين والهند، هذا إلى العوائق الطبيعية التى تحول دون تجمعها تحت سلطة سياسية واحدة تستطيع أن توجه طاقتها البشرية وجهة موحدة نحو هدف كبير.

شبه الجزيرة العربية

فإذا ما انتقلنا إلى شبه الجزيرة العربية وجدنا فروقا واضحة بينها وبين مناطق الاستقرار الكبرى فى آسيا الموسمية.

فإلى شرقها الخليج العربى وخليج عمان، وإلى جنوبها خليج عدن والبحر العربى، وإلى غربها البحر الأحمر. وبهذا استطاعت مياه المحيط الهندى أن تتوغل بذراعين كبيرين نحو الشمال الغربى إلى خط عرض ٣٠ شمالا تقريبا. ومن نهاية كل من هذين الذراعين يبدأ طريق برى يوصل إلى عالم البحر المتوسط، وإن كان طريق البحر الأحمر أكبر أهمية من الخليج العربى فى المواصلات العالمية.

ولم يكن هناك من حائل برى يعوق اتصال قلب الجزيرة العربية بإيران فى الشمال الشرقى والروم فى الشمال الغربى، فصحراء «النفود» تتدرج إلى الشمال فى رفق إلى مشارف الدولتين. وكانت أهم الطرق التجارية التى تسلكها القوافل فى الجزيرة العربية:



١- الطريق الممتد على طول خط الاستقرار الموازى لجبال السراة بين اليمن والشام، ويمر هذا الطريق بنجران والطائف ومكة والمدينة ومدائن صالح وتبوك إلى الشام، وعلى هذا الطريق وفى أوديته كانت قرى اليهود المحصنة: فدك ووادى القرى وخيبر وتيماء. وتسقط الأمطار الشتوية القليلة على الأطراف الشمالية لهذا الطريق، والأمطار الصيفية على أطرافه الجنوبية أما الجزء الأوسط فصحراوى نادر المطر، ويعتمد أكثر ما يعتمد على مياه الأمطار.

٢- وهناك طريق آخر يمتد من مكة نحو الشمال الشرقى متابعا موارد المياه فى وادى الرمة إلى رأس الخليج العربى[١]، وبهذا كان لمكة - خاصة - مركز تجارى ممتاز بين مناطق الاستقرار القريبة: فارس والروم شمالا واليمن وما وراءها من أرض الحبشة جنوبا، وكانت الجزيرة العربية حلقة اتصال بين الحضارات الشمالية والجنوبية، ولم تكن فى عزلة جغرافية كالتى رأيناها فى مناطق الاستقرار الكبرى فى آسيا الموسمية، وتذكر مس سميل أن أشباه الجزر ببروزها من القارات قد تكون مناطق عزلة، وقد تكون مناطق التقاء واتصال. والجزيرة العربية كانت أداة وصل قوية بين آسيا وأفريقيا، واستطاعت المؤثرات الأسيوية أن تصل منها إلى مراكش والنيجر غربا، وإلى زنجبار فى الجنوب، وعبرت الحبشة وتوغلت إلى هضبة البحيرات الاستوائية[٢].

ولم يخضع قلب الجزيرة العربية للنفوذ السياسى الخارجى، وإن خضعت الأطراف الشمالية الشرقية - حيث المناذرة - للنفوذ الفارسى. والأطراف الشمالية والغربية - حيث الغساسنة - للنفوذ الرومانى. أما اليمن فخضعت أحيانا للنفوذ الحبشى وأحيانا للنفوذ الفارسى، ومع أن الأحباش طمعوا فى الاستيلاء على مكة وإخضاع المنطقة الوسطى، إلا أن الحملة التى سيروها باءت بفشل ذريع ذكر الله أمره فى سورة الفيل.

وكان لهذا الوضع الجغرافى بين مناطق الاستقرار أثره فى تعود العربى عدم الخضوع للسلطان الأجنبى، لأنه يستطيع الهجرة بين أجزاء الجزيرة العربية أو الهجرة منها كما حدث فى صدر الإسلام، ورأينا أثر هذا واضحا فى الأدب العربى، ومن أمثلة ذلك قول معن بن أوس:

---

(١) cmmammerer, A., (1929), La Mer Rouge, p. 47, Tome Premier, Le Caire)

(٢) سميل، ص٤٠٤-٤٠٦، سنة ١٩١١م.

وفى الناس إن رثت حبالك واصل   وفى الأرض عن دار القلى متحول[١].

فالطريق أمام العربى مفتوحة من الشمال والجنوب وليست مغلقة كما فى الصين والهند . لهذا رأينا الهجرة فى صدر الإسلام إلى الحبشة وإلى المدينة ولم يستثن الله منها إلا المستضعفين. وفى هذا يقول تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ؟ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ. قَالُوا : أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِلا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ (النساء:٩٧-٩٩).

ويعقب على هذا بقوله تعالى : **﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾** (النساء: ١٠٠)[٢] .

ومما ساعد على محافظة قلب الجزيرة العربية على استقلاله أنه جاف بعيد عن أطماع الطامعين وفى عزلة نسبية عن شاطئ البحر الأحمر ، و الشاطئ نفسه جاف مما يجعل من الصعب اتخاذه قاعدة مستقرة للغزو الداخلى ، ولم تتوافر هذه القواعد إلا فى الأطراف الشمالية و الجنوبية للبحر الأحمر .

واستطاع القرشيون أن يكونوا سادة التجارة بين الشمال و الجنوب ، ونظموا رحلة الشتاء و الصيف ، وهم فى رحلتهم كانوا آمنين لعظمتهم عند الناس ، لكونهم سكان الحرم ، ـ فمن عرفهم احترمهم ، بل من آوى إليهم ماراً معهم أمن بهم ، و ـ أما فى حال إقامتهم فى البلد فكانوا كما قال الله تعالى : **﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا**

---

(١) ديوان الحماسة ،٣ : ٣،ط صبيح ،١٣٣٥ هـ (رثت : ضعفت، والقلى :البغض) .

(٢) مراغما كثيرا أي مذهبا يذهب إليه إذا رأى منكرا يلزمه أن يغضب منه(راجع مفردات الراغب الاصفهاني،ص١٩٨ .

جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾(العنكبوت:٦٧)[١].

كانت رحلتهم إلى اليمن شتاء و إلى الشام صيفا ، وكان بنو عبد مناف الأربعة يتوجهون إلى البلاد المختلفة للتجارة : كان هاشم يتوجه إلى الشام ، وعبد شمس إلى الحبشة ، و المطلب إلى اليمن ، ونوفل إلى فارس ، كان تجار قريش يختلفون إلى هذه البلاد فى ذمة هؤلاء الأخوة الأربعة لا يتعرض لهم بسوء ، وكان كل أخ منهم يأخذ من ملك البلد الذى يقصده أماناً له ، فكان هذا أشبه بالروابط و العلاقات بين أمراء مكة و غيرهم ، و أثرى تجار قريش من ذلك

و تقتضى التجارة علماً بالسياسة العامة و العلاقات ، و بهذا أصبحت عرضة لتكوين أفراد يصعب على المدارس العادية تخريجهم ، و هكذا تولدت فى العرب المواهب النادرة ، وتجلت مظاهرها فى جميع أدوارهم، مما كان له أعظم الأثر فى مواقفهم السياسية و الحربية[٢].

٢ - دول متداعية

فارس:

كانت الحروب عند ظهور الإسلام قد أرهقت دولتي فارس و الروم ، ويذكر كريستنسن عن فارس ، أنه فى مدة أربع سنوات - بعد عام ٦٢٧ ولى عرش إيران عشرة ملوك على الأقل ، وكثرت محاولات اغتصاب العرش من قواد لم يكونوا من الأسرة المالكة[٣]، و استنزفت الحروب ثروات الدولتين الكبيرتين و أورثتهما أحقادا

---

(١) انظر تفسير ابن كثير،٤ : ٥٥٣ .

(٢) حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي،١ : ٨٠، ١٩٣٥ .

(٣)كريستنسن، ايران في عهد الساسانيين،ص٤٨٠-٤٨٢، الترجمة العربية ليحي الخشاب، القاهرة،١٩٥٧

عميقة الجذور .

كانت فارس وثنية ظهرت فيها الزرادشتية ثم اجتاحتها موجة من المزدكية ، وقامت بين الحكومة و أتباع هذا المذهب المنحل حروب انتهت بانتصار الحكومة ، ووصلت العبادات الزردشتية إلى درجة كبيرة من التعقد و الكثرة التى تضيق بها حياة الأفراد اليومية ،كانت عندهم عبادات للشمس و القمر و الماء و النار يتحتم على كل من بلغ الثامنة عشر من عمره أن يتلوها : بعضها فى الصباح و البعض فى الضحى و الظهر و عند تمام القمر ، ومنها صلوات لحراس الليل و النهار ، وصلوات عند تعاطى النبيذ و اللبن و عند أكل الفاكهة لكل منها وقت وشعائر[١] .

ومع هذا التعقد وموجات التحلل والندوب الغائرة التى خلفتها الحروب الداخلية و الخارجية ، لا نستطيع أن ننكر قوة الفرس الحربية إذا قارناها بقوة العرب، وكانت سمعة الفرس الحربية عالية عند العرب ، وهى التى جعلتهم عندما ندبهم عمر بن الخطاب إلى حرب فارس مع المثنى بن حارثة الشيبانى لا يخفون لذلك ثلاثة أيام ، وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم و أثقلها عليهم ، لشدة سلطانهم و شوكتهم و عزهم و قهرهم الأمم ، و فى اليوم الرابع عاد فندب الناس فكان أول منتدب أبوعبيدة بن مسعود ، و تبعه نفر من المجاهدين ، وهو الذى تولى قيادة المسلمين فى وقعة الجسر[٢] .

ولكن هذه القوة الفارسية كانت تخفى وراءها عوامل تحلل عميقة ظهرت فى الصراع السياسى و التعقيد الدينى و الضعف الاقتصادى .

---

(١) يراجع في الزرادشتية : كريستنسن، المرجع السابق، الفصول ٣-٤-٧، القاهرة ،١٩٥٧،و عمر عنايت،العقائد،ص٤٦-٧٦، القاهرة ، دار العصور،١٩٢٨

(٢) علي طنطاوي ، عمر بن الخطاب ا:١١٨،١٢٠-،١٣٥٥هـ

الروم:

أما الروم فكانوا الطرف الثانى فى هذه الحروب الطويلة تقوم سياستهم على استغلال الأقطار التى خضعت لسيطرتهم ، و إذا كانت قد تفاوتت آراء بعض الأباطرة عن آراء البعض الآخر ، فإن هذا التفاوت لم يكن فى مبدأ الاستغلال نفسه، وإنما كان فى مقدار ذلك الاستغلال ، وكانت الحكمة تملى على بعضهم ألا يكلفوا البلاد فوق طاقتها – لا شفقة بالبلاد و أهلها – بل شفقة بأنفسهم كى لا يجف معين البلاد !! وطبق الرومان نظام الوظائف غير المأجورة فقسا هؤلاء الموظفون ليجمعوا أكثر من المطلوب ليؤدوا الضرائب الحكومية المطلوبة منهم وليحتجزوا الباقى لأنفسهم ، وهرب صغار الملاك و تجمعت الأرض فى أيدى نفر قليل من العناصر القوية و أصبحت الحكومة عاجزة أمام نفوذهم .

وكانت قبضة الرومان قوية على الأقطار القريبة من مركز الدولة ثم أخذت هذه القبضة فى التراخى مع البعد المكانى حتى تصل أدناه فى أطراف الدولة ، وكان هناك تباعد نفسى بين الدولة و المستعمرات ، وكثرت الثورات حتى وصل الأمر إلى هجوم الثوار على القصر الإمبراطورى – و النبى طفل–فأنزلوا الإمبراطور موريس عن عرشه و قتلوا أولاده الخمسة أمامه ثم قتلوا الإمبراطور نفسه ، و احتزوا رأس زوجه ومثلوا بها ، وصل الأمر إلى أصحاب الإمبراطور فسملوا أعينهم و قطعوا ألسنتهم و أيديهم و أرجلهم .

و اشتدت الفوضى و أخذت الأوبئة تجتاح الإمبراطورية حتى كان يموت فى اليوم الواحد آلاف الأشخاص كما تكررت الزلازل حتى أخذ الناس يفرون من حقولهم وقراهم(١) .

---

(١) gibbon,g(1952) the decline and fall of the roman empire vol. 4, p. 465, metheun, London.

وكانت الحالة الدينية انعكاساً لهذا الاضطراب فى أصول العقيدة بين قائل بالتثليث و معارض له من أتباع (آريوس) ، وكانت عقيدته أن المسيح لم يكن إلا رجلاً تقياً مؤيداً بروح من الله ، ولم يكن إلهاً و لا ابناً لله ، و إلى جانب هذين الأمرين ظهر القائلون بالطبيعة الواحدة (المونوفيزية) و القائلين بالطبيعتين، و يعطينا كنجسلى تصويراً رائعاً لمدى التعصب و الخلاف العقائدى فى قصة الراهبة هيباتيا و الاعتداء الوحشى عليها تحت قبة كنيسة الإسكندرية(١) .

فهل كانت هذه البيئات صالحة لقيام الدين الجديد ؟

لنتخيل رغم هذا كله أن الإسلام نشأ فى أرض الفرس و الروم ، فهل كان من المعقول أو من المنتظر أن يقبل الفرس ديناً يحمله رومانى ، أو أن يقبل الرومان ديناً جاء به فارسى ، بعد أن وصلت الأحقاد بينهم إلى درجة أثرت فى كل خلايا الحياة فى الدولتين ؟

وهل كان من إرادة الله – و هو بها أعلم – أن ينشأ الإسلام فى بيئة محايدة لا فارسية و لا رومانية ، فلا يعتبر الرومان قبوله هزيمة لهم أمام الفرس ، و لا يعتبر الفرس قبوله هزيمة لهم أمام الرومان .

ومن أجل هذا قام فى هذه البيئة البيضاء التى حفظت دين الله فترة حضانته الأولى ، فكان هدية الصحراء إلى أقطار الأرض .

ليس معنى هذا أن الأرض التى سيطر عليها الفرس و الروم ليست ملائمة من حيث الموقع لتكون قاعدة ينتشر منها الإسلام فقد أثبت الواقع التاريخى كيف عاشت فيها عواصم الإسلام بعد هذا فى دمشق وبغداد والقاهرة قروناً طويلة ، ولكن الذى تجدر الإشارة إليه ، أن هذه الأقطار وقت ظهور الإسلام كانت فيها

---

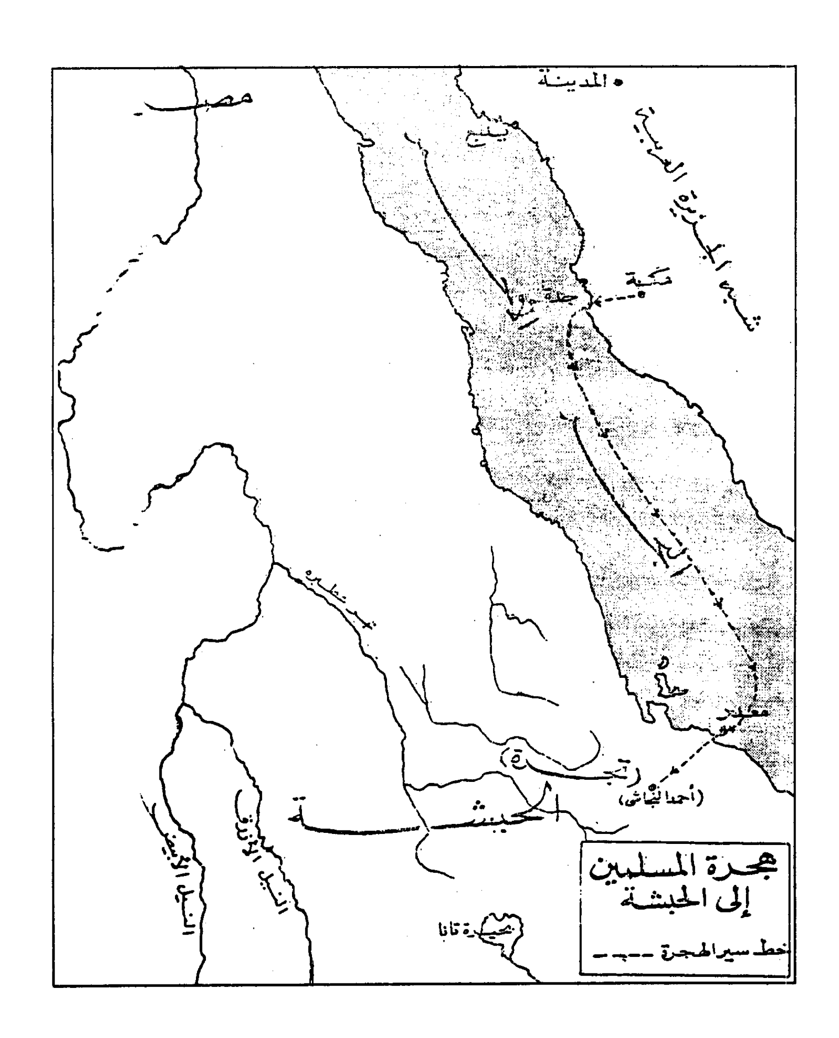
(١) kingsley ,c ,(1902) , the arab conquest of Egypt, pp.44-53. o.u.h.

المشكلات التى سبق ذكرها ، أى أنها - وقتئذ - لم تكن صالحة لتكون مهداً أو قاعدة لنبى جديد ، فالأمر فيها يتعلق بالتاريخ - البعد الرابع لأى دراسة - لا بالجغرافيا من حيث العلاقات المكانية و المقومات الطبيعية .

٣-الحبشة والهجرة

فإذا ما انتقلنا إلى الجنوب وجدنا اليمن مسرحاً لصراع دموى بين قوى الروم والفرس، وكان الأحباش وقتئذ يمثلون قوة ضاربة تتعاون مع الروم على إخضاع اليمن.

والحبشة هى المكان المرشح الذى رشحه النبى ﷺ لهجرة أصحابه حتى يجعل الله لهم فرجاً مما كانوا فيه ، و بعبور الصحابة البحر الأحمر كانوا الطليعة الأولى من حملة الإسلام إلى إفريقية .



المدينة
مصر
ينبع
مكة
جدة
(أحمد النجاشي)
الحبشة
بحيرة تانا
هجرة المسلمين
إلى الحبشة
خط سير الهجرة

ولكن هل هذا هو الباب الرئيسى الذى انتشر منه الإسلام فى هذه القارة ؟ لقد كان دخول الإسلام إلى أفريقيا من أربعة أبواب رئيسية[١] :

(أ) المدخل الشمالى الشرقى : من شبه جزيرة سيناء وهو الذى اتبعه عمرو بن العاص عند دخوله مصر ، و يعتبر أهم المداخل البشرية التى اتبعها الإسلام وانتشر بها فى القارة ، ذلك لأن هذا المدخل ينتهى بنا إلى الدلتا و منها يتشعب طريقان ، أحدهما : يتابع النيل جنوباً إلى النوبة و السودان والصحارى الشرقية و الغربية فى شمال إفريقية ، والثانى : يتابع طريق الساحل إلى المغرب و تخرج منه فروع تعبر الصحراء إلى نطاق السودان لتلتقى مرة أخرى بالمؤثرات التى يحملها التيار الحضارى النيلى إلى الجنوب .

(ب) مدخل البحر الأحمر : ولم يكن عبور هذا البحر يمثل عقبة لها خطرها أمام الذين يبحرون بين شاطئيه ، وكانت المؤثرات السامية تتدفق من الجزء الجنوبى أكثر من تدفقها من الجزء الشمالي ، وذلك لوفرة السكان نسبياً فى بلاد اليمن و لصغر مساحة البحر من جهة أخرى، و لبراعة السكان فى الملاحة من جهة ثالثة ، وليس معنى هذا أن إقليم الحجاز لم يتصل اتصالاً مباشراً بافريقية فإن هذا الاتصال حدث ، و إن كان لم يبلغ مبلغاً عظيماً إلا فى العهد الإسلامى .

(ج) طريق باب المندب : ومنه كانت العناصر المهاجرة تستطيع الاتجاه جنوباً إلى أرض الصومال وشرق إفريقية ، أو شمالاً إلى سهول آريتريا ثم إلى حوض النيل نفسه ، واستطاعت بعض هذه العناصر أن تصل إلى بلاد النوبة ومصر، والمشكلة فى الوصول من هذا الطريق إلى الحبشة هى الوعورة والجفاف وعزلة

(١) محمد عوض محمد ،السودان الشمالي،ص٦–٨، ١٩٥١، طبع لجنة التاليف والترجمة ، القاهرة

الحبشة ، وهى عقبات لا زالت باقية و تؤثر على تطورها و علاقتها بجيرانها .

(د) طريق المحيط الهندى : ويبدأ من الأطراف الجنوبية الشرقية لبلاد العرب وبخاصة الخليج العربى ويصل إلى شرق إفريقية وله آثار واضحة هناك وأدى إلى نشر الثقافة العربية والإسلامية ، و تكوين دول ظلت مزدهرة حتى الصراع الاستعمارى هناك فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

والذى يهمنا تسجيله الآن أن الحبشة مع وقوعها فى شرق إفريقية و قربها من مهد الإسلام وغناها النسبى لم تكن فى عصورها التاريخية منطقة انطلاق فى إفريقيا، وإنما كانت – فى الغالب – منطقة إنزواء وعزلة ، وتستطيع أن تسيطر حتى على السهول الساحلية التى تقع شرقها أو تتوسع فى الغرب والشمال الغربى، أما الجنوب فلم يكن هناك ما يدفع الأحباش إلى التوسع فيه لوجود نطاق جاف نسبياً تليه منطقة هضبة شرق إفريقية المرتفعة .

ومن هنا يبدو الفارق الكبير بين الحبشة ومصر ، التى كانت ولا تزال بحكم موقعها ومقوماتها الجغرافية منطقة إنطلاق فى إفريقية والشرق الأقصى.

من أجل هذا كان المدخل الرئيسى للإسلام من الشمال الشرقى وإن كان دخول الإسلام الحبشة أقدم ، وكانت الحبشة من أول الأمر منطقة التجاء يعيش فيها المسلمون كما قال النبى ﷺ : « حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه »، والنبى ﷺ لم يخرج من مهد الإسلام إلى منطقة التجاء لأنها لا تصلح من بعد لتكون منطقة انطلاق، ذلك لأن الانطلاق الحقيقى كان من قلب الجزيرة انطلاقاً إلى الشمال الشرقى فى فارس وجنوب آسيا وإلى الشمال الغربى إلى أرض الروم وعالم البحر المتوسط وماوراءه جنوباً، وشمال إفريقيا والنطاق الرعوى السودانى، وانطلاقاً إلى الجنوب مع الطرق النابضة بالحياة إلى المحيط الهندى.

ويذكر سير وليام موير معلقاً على عدم هجرة الرسول ﷺ إلى الحبشة : « لن

يتوفر للإسلام مهجر فى المدينة لربما هاجر النبى إلى الحبشة ، وهنا كان من المنتظر أن ينزوى الإسلام – كالمنتانية – ويتحول إلى مذهب مسيحى قصير العمر مآله الانقراض»(١) ، وليس من الممكن أن نحكم على مصير الإسلام لو لجأ النبى ﷺ إلى الحبشة، ولكن لو تخيلنا هذا لتسابقت عدة أسئلة إلى الذهن: من يحفظ القرآن العربى ؟ وما عدد هؤلاء الحفظة ؟ وما مصير الدين العربى فى البيئة الحبشية؟ وإلى أى مدى سيسمح أهل البلاد لهذا الدين الجديد الغريب اللاجئ أن ينمو؟ وما موقف الإمبراطورية الرومانية من الحبشة وهى تعلم أن فيها ديناً جديداً له طبيعته العالمية فى الانتشار؟ وهل يستطيع الإسلام أن يتخذ من الحبشة – وهى مناطق مزقتها الأنهار إلى بيئات منعزلة – قاعدة متماسكة؟ وحين يعود الإسلام إلى بيئته الأولى هل من السهل على العرب قبول هذا الغزو العربى القيادة ، الحبشى الكيان؟

أليس من الأقرب إلى الذهن أن يتابع الإسلام نموه فى مهده الأول وينزل القرآن عربياً فى أرض العرب ، ثم يخرج دعاته بعد هذا ليدخلوا إفريقية من أوسع أبوابها ويتخذوا من مصر قاعدة انطلاق فى إفريقية؟

ليس من الممكن أن نحكم على ما لم يحدث لسبب بسيط ، هو أنه لم يحدث، ولا نريد أن يجمح بنا الخيال لنتصور تاريخا ونبنى عليه نتائج، والذى يعنينا ويستوقف أنظارنا أن النبى ﷺ بقى فى هذه البيئة العربية لتكون قاعدة للإسلام، ومن هنا ينبغى أن نفرق بين هجرة الإيواء فى الحبشة وهجرة الانطلاق فى المدينة، وكيف اعتز النبى ﷺ بأهلها وبقى معهم ، وقال لهم بعد غزوة حنين: «ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار»(٢) .

---

(١) muir (1912) , the life of mohammad p. 70 ,Edinburgh
والمتنانية مذهب ادعى صاحبه منتانوس ، أنه البار قليط الموعود به في الانجيل.

(٢) سيرة ابن هشام، ٤، ١٤٢-١٤٣ .

٤- صحراء

يبقى بعد هذا مقارنة الصحراء العربية بمراعي وسط آسيا والصحراء الكبرى وهى جميعاً أهم المناطق الرعوية فى العالم القديم :

مراعى وسط آسيا

هذه المقارنة درسها ديمولان بكثير من التفصيل[١] ، فالحياة العربية تعتمد اعتماداً رئيسياً على التجارة ، و القافلة العربية فى الصحراء العربية و الكبرى ليست تجمعاً مؤقتاً أو عشوائياً تمليه ظروف طارئة كتجمعات المغول و التتار و إنما هو تجمع له مميزات أهمها :

١ - الاستمرار : لأن القافلة ضرورة من ضروريات الحياة الصحراوية ، والعربى يقضى جزءاً كبيراً من العام فى رحلاته التجارية .

٢ - أنها تتكون من عناصر لها هى أيضاً صفة الاستقرار ، فالأسر التى تتعاون معاً فى قافلة واحدة تظل محافظة على هذا الوضع .

٣ - أن رئاسة القافلة لها صفة الاستمرار ، و حقوق الرئيس و امتيازاته واسعة إذا ما قورنت بما يمارسه الزعيم بين رعاة الاستبس .

ولا يقتصر الأمر على ذلك فحسب ، وإنما الرئيس مسئول عن علاقات القافلة بالغرباء و الأعداء ، و هو المسئول أيضاً عن تنظيم الظعن و الإقامة و اختيار المنازل مستعيناً فى هذا بالرواد ، و فى هذا يجمع الرئيس بين سلطات الحكم والإرشاد .

من أجل هذا رأينا الفارق الكبير بين الدور الذى قام به قادة الإسلام من بلاد العرب ، وما قام به قادة المراعى الاسيوية مثل أتيلا ، وجنكيز خان ، وتيمور لنك فالعربى يحترم رئاسته و نظامه القبلى المستقر ، وقد رأينا صوراً رائعة من التماسك

(١) demolines, e, comment la route cree le type social, pp. 208-213 , vol. 1, paris.

حين يتعاقب على قيادة الجيش فى الموقعة أكثر من قائد كما حدث فى غزوة مؤتة ووقعة الجسر .

لاشك فى أن الإيمان له أثره العميق فى هذا الأمر ولكن الذى يمكن تأكيده هو توفر التربة التى يمكن أن يزكو فيها النبت الإلهى فى هذه المرحلة التاريخية الخاصة .

ويذكر ديمولان أن الجيوش التتارية كثيراً ما كانت تتفكك عند أول صدمة بينما يظل العرب محافظين على لوائهم ملتقين حول قيادتهم ، وكان هذا صادقاً فى فترة خاصة من حياة العرب والتتار ، وقت أن كانت الحياة فى هاتين البيئتين تقوم على أساس قبلى رعوى ، وكانت القوافل هى الوحدات الاقتصادية المتحركة ، ومع تطورات الحياة فى البيئتين لم يعد لظروفهما الجغرافية هذا التأثير القديم ، وقد ناقش جورج تاثام آراء ديمولان فى تأثير البيئة بعامة وعرض لأرض الرعاة فى وسط آسيا[١] . فالآن تغير وجه الحياة فى هذه البيئات الرعوية وتحولت إلى الزراعة والصناعة ولم يعد للحصان التتارى ذلك التأثير الكبير على حياته وحلت المواصلات الحديثة من السيارات والخطوط الحديدية والطائرات محل الوسائل العتيقة ، وتراجع الحصان عن السيادة فى الغزو و الغارة ، وذابت الأوضاع القبلية فى القوميات الجديدة ، وكذلك تغير وجه الحياة فى البيئة العربية الآن ، وأصبح لعلاقات هذه البيئة بما حولها طابع جديد مختلف عن الطابع القديم . وبعبارة أخرى أصبحت جغرافيتها التاريخية عند ظهور الإسلام تختلف عن هذه الجغرافيا فى الفترات اللاحقة وفى الوقت الحاضر ، وعلى هذا لم تعد للجزيرة العربية الآن المميزات النسبية التى تفوقت بها على البيئات الأخرى وقت ظهور الإسلام .

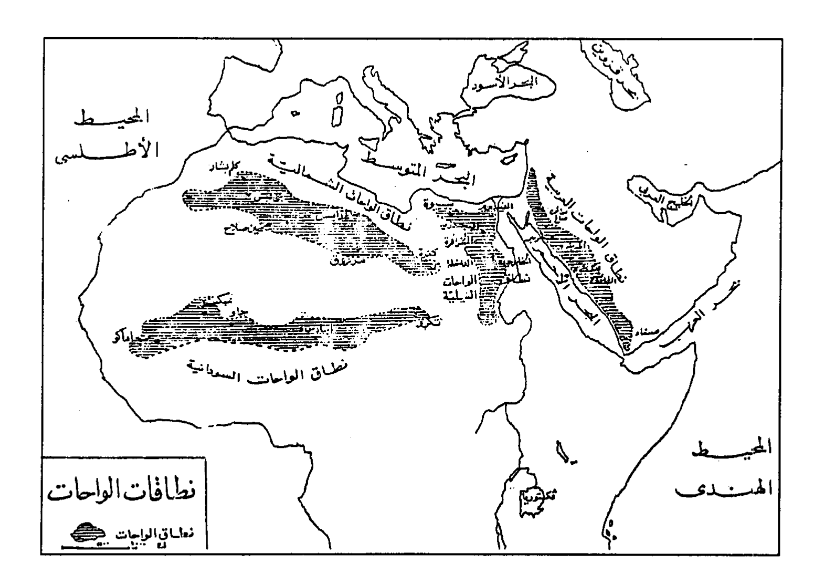
---

(١) ta tham, g,(1951) environmentalism and possibilism, chap vi, pp.138-143 .in:g. taylor: geography in the twentieth century, metheun. london

الصحراء الكبرى

وأول ما نلاحظه على الصحراء الكبرى أنها واسعة فمساحتها أكثر من ثلاثة ملايين ميل مربع ، أى ضعف مساحة الصحراء العربية، ومواردها المائية محدودة جداً مما جعل بين سكانها تنافساً شديداً على هذه الموارد وطرق القوافل، وظلت هذه الصحراء إقليماً ممزقاً فى معظم العصور التاريخية

وهناك فرق كبير بين الصحراويين فى توزيع الواحات وعلاقتها بمناطق الاستقرار المحيطة بها ، وتختلف العلاقة التى تربط الواحة بما حولها من الصحراء ، فهى فى بعض الأحيان علاقة سيطرة ونفوذ كما رأينا فى واحات الجزيرة العربية الممتدة بين اليمن والشام ، ويرجع هذا إلى تقاربها وانتظامها وغناها من التجارة، أما فى الصحراء الكبرى فالوضع مختلف .



فهناك نطاق من الواحات فى الجزء الشرقى من هذه الصحراء يوازى النيل والسودان الشمالى و صحرائنا الغربية وتاريخ هذه الواحات جزء من تاريخ الدول المستقرة فى وادى النيل ، وعلاقة الواحات بالوادى علاقة استفادة وتبعية ، ذلك لأن الدول المستقرة فى الوادى تستطيع السيطرة على الواحات عسكريا وامدادها بما تحتاج إليه عند القحط وقلة المواد الغذائية . وهناك نطاق شمالى من الواحات يمتد جنوب جبال الأطلس وهو بدوره خاضع لدول المغرب العربى . وتسيطر دول النطاق السودانى على الواحات القريبة منها فلا يبقى فى جوف الصحراء إلا واحات متناثرة لا تستطيع أن تتجمع أو أن يكون من وراءها خطر كبير.

وإذا رجعنا إلى تاريخ هذه الواحات وقت ظهور الإسلام لم نجد لها القوة الذاتية التى كانت بواحات الجزيرة العربية . وكان النطاقان النيلى والشمالى (الأطلسى الليبى) خاضعين للنفوذ الرومانى، و آثار مشروعات المياه الرومانية فيهما لا زالت قائمة . ومن هنا اختلف التوجيه السياسى لكل من الصحراوين الإفريقية و العربية وقتئذ ، و إذا كانت اليمن قد خضعت بعض الوقت لقوى الفرس أو الأحباش ، وكانت أطراف الجزيرة العربية الشمالية قد خضعت لقوى الروم و الفرس فإن مهد الإسلام ظل بعيداً عن النفوذ السياسى الخارجى ، ولم تستطع القوى المستقرة فى الشمال أو فى الجنوب أن تسيطر على الجزء الأوسط من النطاق الصحراوى العربى. وصورة الصحراء الكبرى ليست ثابتة ، وإنما هى صورة متطورة .

وقد استطاعت الصحراء الكبرى–فى بعض دوراتها التاريخية – أن تقوم بدور فعال فى تاريخها السياسى . ومن أبرز معالمها الحركة السنوسية وكان من أكبر ما قاست منه هذه الحركة سيطرة القوى الاستعمارية على مناطق الاستقرار الرئيسية فى الشمال و الغرب ، و قطعها موارد الحياة عن الحركة فى النطاق الصحراوى.

٥- مهد الإسلام

يبدو من الدراسة السابقة كثير من ملامح شبه الجزيرة العربية وعلاقاتها المكانية عند ظهور الإسلام ، وتتكامل هذه الصورة بعرض الظروف المناخية والنباتية لهذه البيئة وقتئذ .

الصفة العامة لمناخ الجزيرة هو الجفاف ، والاتجاه العام لدارسي تطور المناخ فى العصور التاريخية أن الجفاف فى صورته الحالية لا ترجع إلى أقدم من القرون الأولى من المسيحية ، وأن النطاق الصحراوى فى بلاد العرب وإفريقية لم يصل إلى جفافه الحالى إلا فيما بين القرن الثالث و السادس الميلادى ، ولازالت مشكلة هذا الجفاف محل دراسة وخلاف بين الباحثين[١] ، فهذا الجفاف - بفرض حدوثه كان تدريجياً وبطيئاً - ومن الصعب تحديده لدخول عوامل أخرى تؤدى إلى تعقد الدراسة مثل هجرات الرعاة و قطع الأشجار وإتلاف الغطاء النباتى الذى يؤدى وحده إلى زيادة الجفاف وتعميق آثاره ، وهو من ناحية أخرى أحد نتائج الجفاف، وبهذا ندخل فى حلقة مفرغة من تبادل التأثير بين قطع الأشجار وزيادة الجفاف، ويرتبط بهذا قلة الحيوانات المفترسة فى الجزيرة العربية وكثيراً ما جاءت في الشعر الجاهلى .

و قد تلقى الأدلة الأثرية فى الجزيرة العربية بعض الضوء على هذه المشكلة :

١- هناك أدلة من صحراء الأردن الشرقية على هبوط منسوب الماء الجوفى الحالى بنحو مترين عما كان عليه فى العهد الرومانى ؛ و هذا الهبوط نتيجة مباشرة

---

(١) تراجع خلاصة هذه الآراء في:

Muzayin. S, (1956) changes of climate and human adjustment in the sahara Arabian belt , with special reference to africia, p p. 304-303. in:

mans role in changing the face of the earth, edited by w.l Thomas. Jr ,univ. of Chicago press.

لقلة المطر الساقط .

٢- قامت الحضارات فى هضاب جوف اليمن فى العصور التاريخية على منسوب يبلغ ارتفاعه نحو ألف متر ، وبالتدريج أخذ المعينيون والسبئيون ينقلون عواصمهم إلى مناسيب أعلى حتى استقرت العاصمة أخيراً فى صنعاء على منسوب ٢٢٠٠ متر والارتفاع هنا يمكن ربطه بالجفاف التدريجى .

٣- لا يمكن أن تملأ موارد المياه الحالية ، صهاريج المياه القديمة التى ترجع إلى الحضارة المعينية والسبئية ، ولابد من افتراض أن الظروف المناخية وقت تلك الحضارات كانت تكفى لتملأ المياه صهاريجهم .

و تتفق هذه النتائج فى اتجاهها العام مع ما ذكره المسعودى فى وصف جبال اليمن – عن أصحاب التاريخ – من أن الراكب والمار كان يسير فيها من أولها إلى آخرها لا تواجهه الشمس و لا تعارضه لاستئثار الأرض بالعمارة الشجرية واستيلائها عليها و إحاطتها بها[١]، كما يتفق مع نتائج الدراسات فى العروض المقابلة فى صحارى إفريقية[٢] .

وهذا الجفاف يمكن أن يكون من أسباب هجرة القبائل من الجنوب واستقرارها فى مواطن كثيرة من بينها يثرب ، حيث عاش الأوس و الخزرج وجاوروا اليهود و سمعوا منهم الأخبار عن النبى المنتظر ، و عندما دعاهم النبى ﷺ إلى الإسلام فى موسم الحج قال بعضهم لبعض : إنه النبى الذى تواعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه فاستجابوا لله و لرسوله و آمنوا و صدقوا[٣] .

فالجفاف التدريجى الذى حدث فى الجزيرة العربية ، وتدهور الحضارات فى

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ١ :٣٤١، طبع البهية، القاهرة،١٣٤٦هـ.

(٢) torrthill (1948) , agriculture in the sudan, p. 4.o u p

(٣) سيرة ابن هشام :٦: ٢٨٦ .

اليمن ، وتحطم مشرعات الرى ومن أبرزها سد مأرب، وكل ذلك دعا إلى حركة هجرات واسعة بين القبائل العربية دفعت سكان الجنوب من مواطنهم، وتدهورت مع هذا مناطق الاستقرار الرئيسية في الشطر الشمالي من الجزيرة العربية – في ديار صالح وأرض مدين–، وبقيت منها آثار تدل علي ظروف مناخية أفضل من الظروف الحالية ، وكانت النتيجة الطبيعية لهذا انهيار الحضارات المعتمدة على المشروعات الزراعية وموارد المياة بينما أخذت منزلة قريش فى الارتفاع . وكانت – كما سبق القول – قائمة أساساً على التجارة ، وزاد من هذه المنزلة قيامهم بسدانة البيت الحرام و سقيا الحجيج..

و من هذا المهد ظهر الإسلام ونزل الوحى على النبى ﷺ .

نتائج البحث

يمكن أن نلخص هذه الدراسة فى النقط الآتية :

١ – أن البيئة التى ظهر فيها الإسلام كانت لها مميزات فى علاقتها المكانية واتصالاتها بما حولها لا تتوفر فى أشباه الجزر الآسيوية ، ومناطق الاستقرار الكبرى فى آسيا الموسمية رغم غنى تلك المناطق وكثرة عدد سكانها . وجميع الأديان التى نشأت فى تلك المناطق لازالت لها صفة محلية .

٢ – إذا قارنا بلاد العرب بما حولها من بيئات الاستقرار وقت ظهور الإسلام وجدنا أن الحبشة كانت منطقة عزلة وإنزواء ، وأن دولتى الفرس والرومان لهما علاقاتهما المكانية وروابطهما القوية بما حولهما ، والمشكلة فيهما كانت فى الواقع التاريخى والأوضاع التى تحيا فيها كلاً من الدولتين ، وأن شدة العداوة بينهما أورثتهما أحقاداً تجعل ظهور الإسلام فى إحداهما مدعاة إلى عداوة

مريرة يلقاها من الأخرى .

٣ – عندما قارنا بلاد العرب بمراعى وسط آسيا والصحراء الكبرى ظهرت أفضلية بلاد العرب على المراعي باستقرار نظامها القبلى ، ومهمتها السلمية فى ربط مناطق الاستقرار حولها، و ما يكتسبه العربى من خبرة كبيرة فى التجارة ، بخلاف ما رأيناه من تاريخ الرعاة وطابعه الغالب غارات عنيفة على مناطق الاستقرار . وعند المقارنة مع الصحراء الكبرى ظهر أن توزيع الواحات وعلاقاتها بمناطق الاستقرار أعطى لبلاد العرب فرص الاستقرار والاستقلال والغنى، وبخاصة الجزء الأوسط بينما لم تتوفر هذه الفرص فى الصحراء الكبرى.

٤ – وعند المقارنة الداخلية بين أجزاء شبه الجزيرة العربية ظهر أثر الجفاف وقطع الغطاء النباتى وتدهور مشروعات الري فى إضمحلال الحضارات العربية فى الأطراف الشمالية والجنوبية من الجزيرة العربية . وكيف توفرت فى مكة ميزات استقرار لم تتوفر فى غيرها من قرى بلاد العرب وكانت هجرة النبى ﷺ إلى المدينة هجرة داخلية فى نفس البيئة التى ظهر فيها الإسلام.

وقد آثر النبى ﷺ البقاء فى هذه البيئة و لم يهاجر إلى الحبشة، وظل فيها حتى انتشر الإسلام فى الجزيرة العربية، ومنه انتشر فى أقطار العالم الأخرى.



الفصل الثالث

طريق الهجرة النبوية



مقدمة
طريق الهجرة

١- والهجرة كانت «عربية» لم يترك فيها النبى ﷺ الجزيرة إلى بيئة أخرى خارجها ، كما فعل أصحابه عندما أذن لهم فى الهجرة إلى الحبشة، وكانت مكة واحة لها مقوماتها الطبيعية والبشرية التى أهلتها وقتئذ لزعامة العرب - وفيها نشأ الإسلام - ولكنها لم تكن الموطن الذى تقبل الإسلام فى سماحة و يسر مما دعا النبى وأصحابه إلى الهجرة منها، و بهذا يكون أول أقسام البحث : عرض البيئة الطبيعية والبشرية لمكة عند ظهور الإسلام.

٢- وكانت الهجرة إلى المدينة ، ومع وقوع كل من مكة والمدينة على محور الواحات الممتد من اليمن إلى الشام ، إلا أن هناك فروقاً واسعة - طبيعية وبشرية - بين مكة و المدينة ، تقتضى دراسة مقارنة بين البيئتين.

٣- وبعد الوصف المقارن لبدء طريق الهجرة من مكة ، ونهايته فى المدينة ، يمكن أن نصف الملامح الجغرافية للمنطقة بينهما والطريق الذى سلكه الرسول ﷺ فى هجرته.

أي أن الموضوع سيكون إجابته عن ثلاثة أسئلة : من أين؟ وإلى أين؟ وكيف ؟

١- مكة

الملامح الطبيعية :

وتقع مكة فى واد ضيق عميق يبعد نحو ستين كيلو متراً عن شاطئ البحر الأحمر ، وينحدر الوادى من الشمال إلى الجنوب ، وفى أعلاه انحراف نحو الشرق، وترتفع الجبال على جانبى الوادى و تحيط به حيث تحدد مداخله تحديداً دقيقاً .

ويبلغ ارتفاع بطن وادى مكة نحو ٣٦٠ متراً فوق مستوى سطح البحر وإلى شرقه يرتفع جبل قعيقعان وإلى الغرب جبل أبى قبيس ويطلق عليهما الأخشبان[١] وكان أبو قبيس يسمى فى الجاهلية الأمين[٢] . ولا ينمو على الأخشبين من النبت إلا القليل . وسفوحهما جرداء تتناثر فيهما غيران تتباين عمقاً واتساعاً . وعند حضيض أبى قبيس ترتفع ربوة صغيرة هى الصفا تقابلها فى الجنوب الشرقى ربوة أخرى هى المروة، وفيها نزل قول الله تعالى : ﴿**إنَّ الصَّفَا والمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ الله** . . ﴾[٣] وفى منتصف الطريق بينهما تهبط الأرض فى بطن الوادى . .

وإلى جنوب جبل قعيقعان وغرب أبى قيس يرتفع جبل عمر ، وكان اسمه العاقر فى الجاهلية[٤] . ويطلق على الجزء الشمالى من قيقعان « جبل الهندى » لسكنى الهنود فيه .

---

(١) الاخشب من الجبال الخشن العظيم ، والأخشبان جبلان بمكة :انظر لسان العرب ١ :٣٥٤-٣٥٥، ط صادر وبيروت .

(٢) الأزرقي ، أخبار مكة ، ٢ :٢١٥، ط الماجدية بمكة المكرمة . .

(٣) الأزرقي : ٢ :٢٣٦ .

(٤) الأزرقي:٢: ١١٥-٢٤٥ وفي هذه الصفحات يذكر المؤلف شعاب مكة وجبالها وثنياتها وبطونها ومتونها .

هذه هى الجبال الرئيسية المشرفة على مكة أهمها أبوقبيس وقيقعان ويليهما جبل عمر ، وإذا رجعنا إلى الأزرقى وجدناه يذكر أسماء كثيرة لجبال أخرى أقل أهمية ، بعضها أجزاء من هذه الكتل الرئيسية ، أو امتدادات لها[١].

وأدى هذا التوزيع إلى تحديد مداخل مكة الرئيسية الثلاثة :

(أ) المدخل الغربى : بين جبلى قعيقيعان وعمر وهو الموصل إلى جدة .

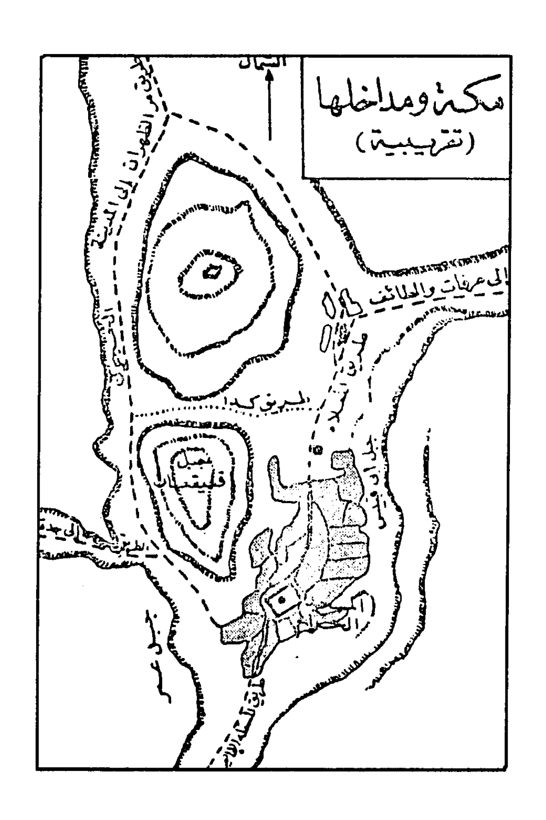
(ب) المدخل الجنوبى : فى مسفلة مكة ويسمى طريق اليمن .

(ج) المدخل الشمالى : من المعلاة ويوصل إلى منى وعرفات والطائف .

وتؤدى هذه المداخل - أو الطرق - الثلاثة إلى بطن مكة ، وبينها اتصالات حول جبل قعيقعان : فهناك طريق يتفرع من الطريق الغربى ، ويتجه شمالا مارا بالحجون إلى وادى فاطمة إلى مر الظهران ، حيث يلتقى بطريق آخر يتفرع من الطريق الشمالى . ويتصل طريق الحجون بطريق الشمال فى معلاة مكة بطريق كندا شمال جبال الهندى[٨٤] .

---

(١) تعتمد هذه الخريطة على خريطة المساحة المصرية مقياس ١ : ١٠٠,٠٠٠ عام ١٩٤٥ وخريطة مكة التى أرفقها الدكتور محمد حسين هيكل بكتابه « فى منزل الوحى ». ط النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٢ . وخريطة مكة التى أرفقها الدكتور محمد حميد الدين الحيدر أبادى بكتابه « مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة » ص ٣٥ القاهرة ١٩٥٨ ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر .


مكة ومداخلها
(تقريبية)
الشمال
إلى عرفات والطائف
جبل قعيقعان
جبل أبي قبيس
جبل عمر

وأشهر موارد المياه فى مكة بئر زمزم فى الحرم ، وقد أحصى الجغرافيون العرب موارد مياه المنطقة فى الجاهلية وعند ظهور الإسلام ، وما طرأ عليها من تطور ، وبه استطاع السكان استغلال الماء الجوفى عن طريق الآبار والمجارى الجوفية ، و أهم هذه الموارد عند جبل عرفات ، ويصل إلى مكة بمجرى جوفى عليه آبار مفتوحة فى أكثر من مكان فى مكة .

و قد يسقط على مكة المطر مرة أو مرتين فى العام وهو من النوع المدارى المفاجئ العنيف مما يؤدى إلى أضرار كثيرة . و المسجد الحرام أشد تعرضاً لهذه الأخطار لانخفاضه ، مما دعا إلى اتخاذ إجراءات وقائية لحمايته و صيانته ، و سجل الأدب العربى ظاهرة انخفاض الوادى و تعرضه للسيول ، و من ذلك قول أبى طالب :

وحيث ينيخ الأشعرون ركابهم لمفض السيول من أساف ونائلة[1]

و يضاعف من تأثير الحرارة ، إحاطة الجبال بمكة بسفوحها العارية فتكسب فى الجو الصافى حرارة تعكسها أو تختزنها ثم تشعها ، ولا تكاد تجد الرياح منفذاً إلى بطن الوادى فيصبح الجو راكداً مرهقاً .

و انعكس هذا الجفاف على ظاهرات البيئة الطبيعية والبشرية الأخرى فقل فيها النبات الطبيعى .

---

(١) إساف ونائلة : صنمان كانا – في الجاهلية – على الصفا والمروة . وبينهما – أى الصفا والمروة – تنخفض الأرض فى بطن الوادى وإليه تجرى السيول .انظر تفسير ابن كثير فى شرح قوله تعالى: ﴿**إنَّ الصَّفَا والمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ الله**﴾ ١ : ١٩٨– ط . التجارية .

من المنتظر إذن ألا تكون الزراعة أساساً للحياة الاقتصادية فى مكة ، وأن تستفيد – فى نفس الوقت – من موقعها المتوسط على محور الواحات الممتد بين اليمن و الشام و بين البحر الأحمر ورأس الخليج العربى . وأن تنظم رحلة الشتاء إلى اليمن و الحبشة ، ورحلة الصيف إلى الشام وفارس ، وكانت قوافل قريش كبيرة ، فالقافلة المكية التى حاول المسلمون اعتراضها ، وأدت إلى غزوة بدر ، كانت مكونة من « ألف بعير فيها أموال عظام تقدر بخمسين ألف دينار »[1] .

و كانت هذه القوافل فى تنظيمها مظهراً لتضامن قريش و تعاونها الاقتصادى ففى تلك القافلة « لم يبق بمكة قرشى و لا قرشية له مثقال فصاعداً إلا بعث به فى العير »[2] .

وكان لهذا التضامن الاقتصادى أساسه الاجتماعى و الدينى ، فإحساس قريش بأنهم أهل الحرم ، واعتزازهم بأنفسهم دفعهم إلى تدعيم نشاطهم الاقتصادي ليكفلوا لأنفسهم مورد رزق منتظم ، وليتمكنوا من القيام بالأعباء التى يفرضها عليهم وضعهم الدينى فى سدانة البيت وسقيا الحجيج ورفادتهم .وكانت قريش قبل تنظيم تجارتها بين الشام واليمن ، إذا أصاب واحداً منها فقر خرج وعياله إلى موضع وضربوا على أنفسهم خباء حتى يموتوا ، يفعل هذا ولا يستجدى الناس ، حتى جاء هاشم بن عبدمناف وكان سيد قومه وأنكر هذا الذى يفعله بعض قريش، ووجههم إلى تنظيم روابطهم التجارية مع الشمال والجنوب ، شتاء إلى اليمن وصيفا إلى الشام ، فما ربح الغنى قسمه بينه وبين الفقير حتى كان غنيهم كفقيرهم.

---

(١) المقريزى : إمتاع الأسماع ١ : ٦٦ تحقيق وشرح محمود محمد شاكر ط . لجنة التاليف والترجمة والنشر..

(٢) نفس المرجع والصحيفة.

وجاء الإسلام وهم على ذلك ، فلم يكن فى العرب بنو أب أكثر مالاً ولا أعز من قريش ، وهذا معنى قول شاعرهم فيهم :

والخالطون فقيرهم بغنيهم حتى يكون غنيهم كالكافي(١)

ولما كانت مكة حرماً آمناً ، لم تكن قريش فى حاجة إلى أن تخططها على أساس دفاعى كما حدث فى بقية الواحات الممتدة بين اليمن والشام ، ولم تظهر أية حاجة إلى بناء أسوار تحيط بها أو حصون يأوى إليها سكانها عند التهديد بأى خطر ، أو أبواب ضخمة تتحكم فى الوافدين إليها والصادرين عنها .

ومن هذه الناحية كان لتخطيط مكة طابعه الخاص المعتمد على قداسة البيت الحرام والمركز الدينى المرموق لأهل الحرم فى الجزيرة العربية .

وقد عنى الجغرافيون العرب بوصف مكة على عهد النبى ﷺ : كان الحرم مركز الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية وتحيط به منازل قريش مقسمة على أساس النسب . ويهمنا منها شعب بنى هاشم – رهط النبى – إلى الشمال الشرقى من الحرم . وبهذا كان أقرب إلى المعلاة ، وكانت المنازل تبنى على سفوح المرتفعات المشرفة على الوادى وشعابها

وكانت لقريش دار ندوة يجتمع فيها شيوخهم يتدارسون أمرهم ويجمعون على الرأي قبل أن يبرموه ، ورغم ما كان بين بطون قريش من تنافس إلا أن وحدة القبيلة ومنزلتها الكبيرة بين العرب كانت السمة الغالبة التى تختفى فى طياتها هذه المنافسات الداخلية .

---

(١) الألوسى : بلوغ الأرب من أحوال العرب ٣ : ٢٨٦ – ٢٨٧ ط . الأهلية مصر .

أما من الناحية الدينية فكانت قريش تجتهد فى أمر دينها ، ولهذا أطلق عليهم اسم «الحمس» أى المتحمسون والمتشددون فى أمر الدين ، واعتبروا من الحمس بعض القبائل التى وجدوا فيها الإقبال على الشعائر الدينية فى الجاهلية حتى أنهم كانوا لا يطوفون حول البيت فى ثياب عصوا الله فيها.

فالقبيلة إذن كانت وحدة متماسكة لها ميراثها التاريخى القديم ، بأساسه الدينى ومظاهره فى حياتهم الاجتماعية والاقتصادية ، ومنزلتهم بين العرب ، وحياتهم القائمة على التجارة وخدمة البيت الحرام.

وإذا كان من طبيعة العربى الحنين إلى منازله ، وكان من تقاليدهم فى أشعارهم أن يذكروا فيها الديار والأطلال ، فإن القرشي ساكن مكة -- حرم الله -- كان أشد حنيناً إلى موطنه الذى يضم هذا الميراث الممتد فى أعماق التاريخ وتدين به العرب، وكان يحس أن مكة محور الحياة العربية بنظام الحج والتجارة وما يرتبط بهما من أشهر حُرم ، وزعامة روحية واقتصادية واجتماعية .

على هذا نستطيع أن ندرك أن الهجرة لم تكن مجرد تغيير موطن بموطن أو أن ارتباط النبى والصحابة بمكة كان ارتباطاً لا يصل إلى أعماق نفوسهم . لقد كانت فيهم العاطفة الدافقة نحو هذه البيئة ، بل كانوا أشد أهل مكة إحساساً بمنزلة مكة الحقيقية ، والدور الذى ينبغى أن تقوم به فى الحياة العربية فى ظل الإسلام .

التفاعل بين الإسلام وقريش

وعندما أرسل الله رسوله محمداً ﷺ ، دعا قومه إلى دين الله، وكان من

المستجيبين له الغني كأبى بكر ، وعبدالرحمن بن عوف ، والفقير كبلال بن رباح وكان حبشياً ، والصبي كعلي بن أبى طالب ، والمرأة كخديجة وسُمية من آل ياسر والرومي كصهيب . فالقول بأن الاستجابة للإسلام كانت على أساس طبقي أو عصبية قبلية أو جنسية قول مردود ، وإنما كان المسلمون يمثلون – من أول الأمر– نماذج من كل قطاعات المجتمع المكي .

ورأت قريش فى هذا الأمر الجديد ما يهدد وضعها الدينى ومنزلتهاالاقتصادية ووحدتها الاجتماعية : رأت فيه ثورة كاملة على النظام المستقر الذى عاشت به وتزعمته ، ومن هنا جاءت المحاربة العنيفة للإسلام ، ومع أن هذه المحاربة شملت جوانب الحياة المادية والمعنوية وألجأت المسلمين إلى الهجرة إلى الحبشة مرتين ، إلا أنها لم تصل إلى حد التآمر على قتل النبى والتخلص منه إلا بعد موت عمه أبى طالب وزوجه خديجة ، وعودته من الطائف دون أن تستجيب له ثقيف . وهذا التآمر مع خطره يمثل لنا صورة من نظام الشورى عند قريش ، وكيف أن هذا الأمر كان عندها أكبر من أن ينفرد به بيت أو قبيلة .

وعندما ضاقت مكة بالرسول ﷺ واشتد عليه أذى قريش أخذ يعرض نفسه على القبائل فى موسم الحج ، ولقيه نفر من الخزرج – سكان المدينة – فآمنوا به ، و عادوا إليه فى العام التالى مع نفر من قومهم ، وتعاهدوا مع النبى ﷺ فى منى على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم و أموالهم، وقصة بيعة العقبة وما دار فيها ، وما لقيه الرسول ﷺ وصحبه فى مكة – من قبل – مفصلة فى كتب السيرة فلا حاجة إلى الوقوف عندها ، وإنما الذى سنعنى به – بعد دراسة مكة طبيعياً و بشرياً – أن ندرس بيئة المدينة .

المدينة

الملامح الطبيعية

وتبعد المدينة عن ساحل البحر الأحمر نحو ١٦٠ كيلومتراً ، وعن مكة – فى خط مستقيم – نحو ٣٣٥ كيلو متراً . و تشغل جزءاً منخفضاً من سهل مرتفع ، ومستواها نحو ٧٠٠ متراً ، و تحيط بها التلال من ثلاث جهات أما الجنوب فأكثر استواءاً و إن كانت به بعض التلال .

وتقع المدينة بين حرة واقم إلى الشرق وحرة الوبر إلى الغرب ، والعرب تطلق لفظ الحرة على التكوينات البركانية ، وأحياناً يسمونها اللابة . وإلى شمالها جبل أحد ، ومن ورائه جبل ثور – الحد الشمالى لحرم المدينة – وإلى الجنوب جبل عير – حدها الجنوبى . وهذان الحدان الشمالى والجنوبى يوضحهما الحديث الشريف : « المدينة حرام ما بين عير إلى ثور »[١] . أما الحدان الشرقى والغربى وهما الحرتان ، فجاء ذكرهما فى حديث آخر : « اللهم إنى حرمت ما بين لابتيها كما حرم إبراهيم خليلك »[٢] .

والانحدار العام للمدينة نحو الشمال الغربى ، وينحدر من حرة واقم وادى بطحان ومذينيب ، ويلتقى بهما وادى رانوناء منحدراً من جبل عير وتتجه هذه الأودية نحو الشمال الغربى ، ويلتقى بها وادى قناة منحدراً من الشرق ، ثم تنتهى إلى وادى العقيق الذى يخترق حرة الوبر مقبلاً من الجنوب ويتابع اتجاهه شمالاً وأطلق عليه اسم العقيق لأنه « عق فى الحرة » ، أى شق و قطع[٣]، ويذكر ياقوت :

---

(١) الألوسي ، بلوغ الأرب من أحوال العرب ، ٣ :٢٨٦ –٢٨٧ ط . الأهلية، مصر، البخاري عن علي ك / الفرائض ب / إثم من تبرأ من مواليه (٦٢٥٨) .

(٢) نفس المرجع، البخاري عن أنس بن مالك ك / المغازي ب / أحد يحبنا ونحبه (٣٧٧٥) .

(٣) ابن بديع الشيباني ، تيسير الوصول،٣ :٢٨٠ ط الحلبي .

«أن العقيق اسم لكل مسيل شقه السيل فأنهره ووسعه[1]، و فى الجزيرة العربية أكثر من واد يحمل اسم العقيق ، ووادى العقيق – فى المدينة – أشهر أوديتها وأهمها ، وتتبعه إحدى الطرق المقبلة من مكة» .

ويطلق على الأجزاء المرتفعة فى الجنوب الشرقى العوالى ، أو عالية المدينة وعلى الجزء الشمالى سافلتها . و يتخذ انحدار المدينة – بهذا – عكس الاتجاه الذى يأخذه الانحدار العام لمكة .

وموارد المياه فى المدينة متوفرة ، وبخاصة على طول الأودية المنحدرة فيها أو بالقرب منها ، وهى ذات نظام شجرى يتجمع في وادى العقيق .

وليس فى المدينة الجفاف الشديد الذى رأيناه فى مكة ، وإنما ترتفع رطوبتها– نسبياً – لوفرة مياهها .

و للمدينة عدة مداخل أهمها :

١ – طريق قباء وهو الموصل إلى مكة ويتبع وادى العقيق .

٢ – الطريق الغربى إلى ينبع .

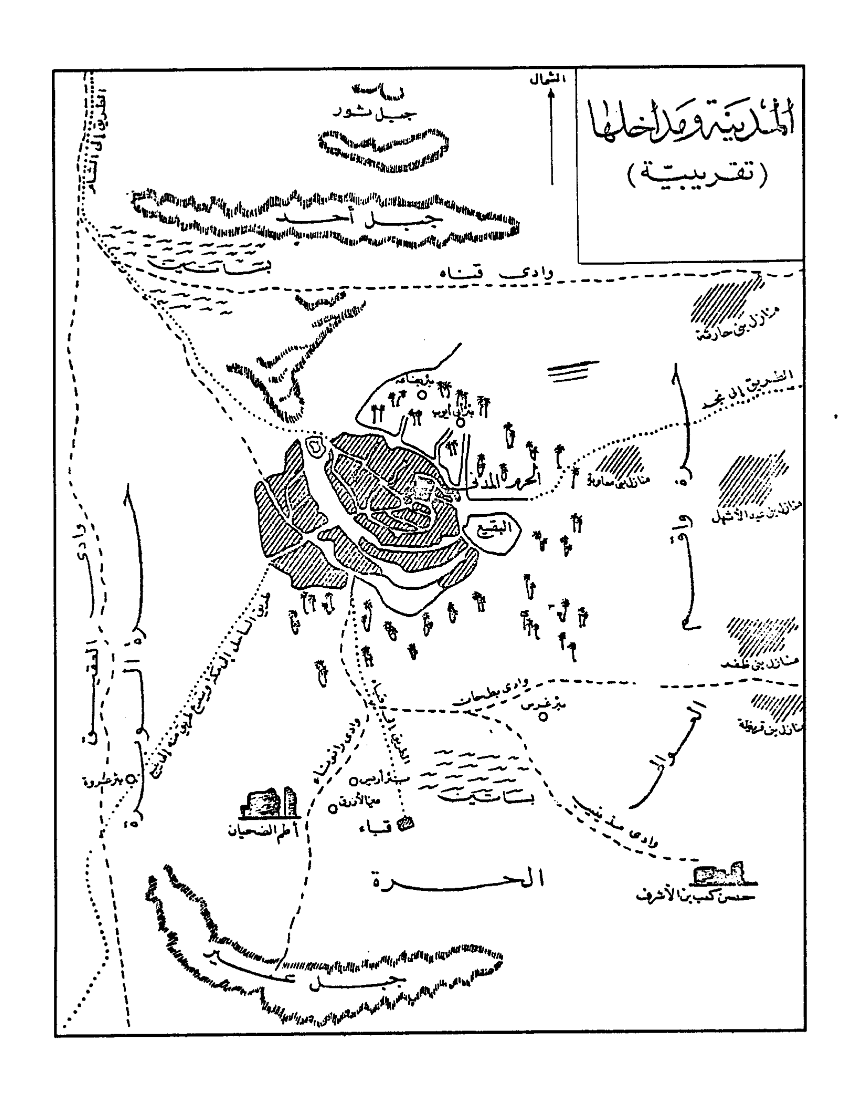
٣ – طريق نجد مخترقاً حرة واقم .

٤ – طريق الشام المتجه شمالاً .

٥ – وهناك طريق آخر أقل أهمية وهو الموصل إلى جبل أحد ويقع إلى الشرق من طريق الشام .

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، ٥ : ٨٤ ط صادر بيروت، ويقول النبي ﷺ «أريت دار هجرتكم سبخة ذات نخل بين لابتين» انظر ابن القيم ، زاد الميعاد ، ٣ : ١٤٤ ط أنصار السنة المحمدية ، وانظر أيضا المنذري الترغيب والترهيب ، ١ : ٣٤٣ ، الحلبي ، مصر.


المدينة ومداخلها
(تقريبية)
الشمال
جبل ثور
جبل أحد
بساتين
وادي قناه
منازل بني حارثة
الطريق إلى نجد
منازل بني معاوية
منازل بني عبد الأشهل
الحرة المدني
البقيع
منازل بني ظفر
منازل بني قريظة
وادي بطحان
بئر غرس
العوالي
بساتين
وادي مذينيب
حصن كعب بن الأشرف
قباء
الحرة
أطم الضحيان
بئر عروة
جبل عير

كانت المدينة قبل الهجرة تسمى يثرب . وسجل الله تعالى هذا الاسم لها فى قوله تعالى عن غزوة الأحزاب : ﴿ **وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا** ﴾[1] . ووردت بهذا الاسم فى النقوش السبئية وعند الجغرافيين القدماء كبطليموس[2] . وتقع على طريق التوابل الذى يربط اليمن بالشام . واستطاع سكانها أن يستفيدوا من موارد مائها وجودة تربتها فجعلوا منها واحة زراعية تشتهر بنخيلها وبساتينها .

وإذا كانت مكة قد تمتعت بأنها حرم الله من أقدم عصور الحياة فيها فإن المدينة لم تتمتع بهذا التحريم إلا بعد هجرة الرسول ﷺ إليها ، وهو تحريم لا يدين به غير المسلمين ، من أجل ذلك كان على المدينة قبل الإسلام وفى عهد النبى ﷺ قبل إسلام مكة أن تحمى نفسها بنفسها . و انعكس هذا على تخطيطها و نظام مبانيها .

والتكوين القبلى للمدينة – قبل الإسلام – يختلف عن مكة : فقد سكنتها قبائل من اليهود : من بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة وتذكر المؤلفات العربية أكثر من سبب لهجرة اليهود إلى المدينة واستقرارهم فيها وفى غيرها من الواحات كفدك وتيماء وخيبر فى وادى القرى شمال المدينة[3] .

وعندما هاجر عرب الجنوب بعد تحطيم سد مأرب واشتداد الجفاف فى الجنوب، خرج الأوس من مواطنهم الجنوبية واتجهوا شمالاً حتى استقروا فى المدينة مع

---

(١) عبد القدوس الأنصاري، آثار المدينة المنورة، ص ١٥٧ ، ط المكتبة العلمية بالمدينة المنورة .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ٤ : ١٣٨

(٣) تعتمد هذه الخريطة على خريطة المدينة المنورة التي أصدرتها هيئة المساحة المصرية بمقياس رسم ١ : ١٠٠,٠٠٠، عام ١٩٤٧ ، والخريطة التي أرفقها الدكتور هيكل في كتابه « في منزل الوحي » عن المدينة ، وخريطة الدكتور محمد حميد الدين الحيدر أبادي في كتابه « مجموعة الوثائق السياسية »، ص:٣٥ .

اليهود. من أجل ذلك لم يكن فى المدينة التضامن والتماسك الاجتماعى الذى رأيناه فى مكة ، وإنما كان هناك فرقة من أهم مظاهرها ما كان بين العرب واليهود ، ثم ما بين الأوس والخزرج أنفسهم . وكانت السيادة – أول الأمر – فى المدينة لليهود . وقامت بينهم حرب انتهت بانتصار الأوس والخزرج ، وصاروا أعز أهل المدينة . واتخذوا القصور والأموال والحصون[1] . وكانت بينهم حروب فى الجاهلية ورجوا عندما لقوا رسول الله ﷺ فى موسم الحج أن يجمعهم على كلمة واحدة .

وتخطيط المدينة يختلف عن تخطيط مكة ففى المدينة تنتشر الحصون والآطام[2]. وكان منها – عند الهجرة – حصن كعب بن الأشرف سيد بنى النضير – في الجنوب الشرقى من المدينة على حرة واقم عند أطراف وادى مذينيب. وأطم الضحيان فى الجنوب الغربى، ولا تزال آثارهما باقية . أما بقية الحصون التى ذكرها الجغرافيون والمؤرخون العرب فى المدينة فقد درست معالمها[3]. وكان لكل قسم من أقسام الأوس والخزرج منازلهم فى عالية المدينة أو سافلتها ولهم حصونهم التى يمتنعون فيها عند الحرب أو الخطر . وتعتمد هذه الحصون على آبارها الخاصة لتوفير الماء فى الظروف العادية ووقت الحرب ، واستفاد أهلها من توفر الماء الجوفى فتعددت الحصون والآطام وكثرت فى المدينة الدور والبساتين[4] . إلا أنها مع هذا الغنى الاقتصادى لم تجتمع على رجل واحد ، وامتصت الحروب والمنازعات الداخلية جانباً من ثروتها . واليهود فيها كانوا يعتبرون أنفسهم أهل كتاب وأنهم

---

(١) فيلب حتى ، تاريخ العرب ، الترجمة العربية لمبروك نافع ، ١ :١٠٢ ط العالم العربي، القاهرة.

(٢) الأطم : البناء المرتفع.

(٣) عبد القدوس الأنصاري، آثار المدينة المنورة، ص ٤٢، ويصف المؤلف هذين الأثرين في قسم الحصون والآطام، من كتابه ص ٤٢–٥٣ .

(٤) انظر وصف المدينة في الجاهلية وصدر الاسلام ، ياقوت في معجم البلدان،٥ : ٨٢ –٨٨ ، والألوسي في بلوغ الأرب : ٨٨ –١٠١ .

شعب الله المختار ويفخرون بذلك على العرب ، وهؤلاء لا ينسون مكر اليهود بهم وعدوانهم عليهم ، فأخذوا يدعمون أنفسهم اقتصادياً ويبنون الحصون ويجمعون السلاح ، وهم – فيما بينهم – غير مجتمعين على رأي واحد ، وإن قرب بينهم خطر اليهود المستقر فى المدينة ، يحالفونهم أحياناً ويحاربونهم أحياناً .

والأوس والخزرج أزديون من عرب الجنوب ، ومع أن العرب يدينون لقريش بالزعامة ، إلا أن وضع الأوس والخزرج فى المدينة أعطاهم حرية أوسع فى اختيار موقفهم من الإسلام . وكانوا يسمعون من بنى قريظة والنضير – يهود المدينة – أن نبياً مبعوث فى هذا الزمان ، ويتوعدون الأوس والخزرج به إذا حاربوهم فيقولون : « إنا سنقتلكم معه قتل عاد وإرم » . وكانت الأوس والخزرج تحج البيت فيمن يحجه من العرب ، فلما رأوا رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى الله رأوا أمارات الصدق عليه لائحة ، فقالوا : « والله هذا الذى توعدكم به اليهود فلا يسبقنكم إليه »(١) . وكان كل من حضر بيعة العقبة الأولى من الخزرج، وفى العام التالى حضرها نفر من الخزرج والأوس . ثم كانت بيعة العقبة الأخيرة فى العام الثالث وهى التى تحددت فيها شروط الهجرة وأخذ مسلمو مكة بعد هذا فى الهجرة إلى المدينة بعد أن أذن لهم رسول الله خلال العام التالى ، وكانوا يتعاونون فى أمر السفر حتى لم يبق بمكة إلا رسول الله ﷺ ، وأبوبكر وعلي بن أبى طالب ، ومن اعتقله المشركون كرهاً ، فحذرت قريش خروج رسول الله ﷺ وتشاوروا بدار الندوة ثم اتفقوا على قتله ، يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه وبهذا تحدد وقت الهجرة بعد أن تحدد هدفها .

---

(١) المقريزي ، امتاع الأسماع ، ١ : ٣١ .

-٣-

مراحل طريق الهجرة

المجال الجغرافي

كانت الهجرة فى صيف ٦٢٢ ميلادية ، ومع أن الجفاف والحرارة هما الطابعان الغالبان للجزيرة العربية ، إلا أن العربى كان يفضل وقت اعتدال الجو إذا تُرك له الخيار فى أمره . و يذكر الله تعالى هذا العامل المناخى كحجة حاول بها بعض أهل المدينة أن يبرروا بها عدم خروجهم مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك فيقول : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ (التوبة : ٨١)(١) .

وللطريق من مكة إلى المدينة مميزات جغرافية لها ارتباطها بالتقسيم التقليدى الذى درج عليه العرب لجزيرتهم . فقد كانوا يقسمونها إلى تهامة والحجاز – وفيها كان المجال الجغرافى للهجرة – واليمن ونجد والعروض . وأطلقوا عليها هذا الاسم لاعتراضها الطريق بين اليمن وفارس .

وتهامة اصطلاح « جيومورفولوجى » ومناخى : فالتهمة هى الأرض المنصوبة إلى البحر ، والتهم شدة الحر وركود الريح(٢) .

أما الحجاز فهو ما حجز بين تهامة والعروض ، وربط بعض الكتاب بين مدلول الحجاز وبين التكوينات البركانية هناك ، قال الأصمعى : إذا عرضت لك الحرار وأنت منجد فتلك الحجاز(٣) .

---

(١) لسان العرب ، ١ :٧٢ ، ٧٣

(٢) لسان العرب ، ١٢ : ٧٤

(٣) blanchar (1929) asia occidentale , 172 ,geog . universelle . tome

وتعرضت هذه المنطقة – تهامة والحجاز – لحركات أرضية أدت إلى ارتفاع جبال الحجاز بانحدارها الشديد نحو البحر ، والتدريجى نحو الداخل وبتباين ارتفاع هذه السلسلة الممتدة على طول البحر من أقصى شماله إلى أقصى جنوبه حيث تبلغ فى اليمن أكثر من ثلاثة آلاف متر ، أما فى الحجاز فتصل فى بعض الأجزاء إلى أكثر من ألف متر ، وتتكون جبال الحجاز من صخور جرانيتية تغطيها فى بعض الأجزاء تكوينات رسوبية من الحجر الجيري وتكوينات حديثة من الطفح البركانى هى التى يطلق عليها الحرار[١].

وتنحدر الأودية منها فى اتجاهين : نحو السهل الساحلى وهى هنا قصيرة نسبياً وشديدة الانحدار ونحو الداخل حيث الانحدار التدريجى الذى يجعل الأودية أكثر طولاً ، وتفيض هذه الأودية بالماء عند سقوط المطر القليل المفاجئ ، ومعدلات الحرارة مرتفعة والمدى اليومى كبير ، ويضاعف سطوع الشمس من تأثيرها ، والجنوب يختلف فى هذا عن الشمال : فجبال الجنوب عامرة نسبياً تتمتع بمطر أوفر ، وهى بهذا مناطق استقرار تختلف عن جبال الشمال الجافة الممتدة من رأس خليج العقبة حتى خط عرض ٢٠ درجة شمالاً تقريباً ، والسهل الساحلى جاف أيضاً ومتشابه فى تهامة ومدين وإن امتاز فى تهامة بالموقع المتوسط الذى يجعل اتصاله سهلاً بقلب الجزيرة العربية .

الطرق الرئيسية بين مكة والمدينة

ولهذه الظاهرات الطبيعية تأثيرها على طرق الاتصال بين أجزاء الجزيرة العربية ، ويهمنا منها الطرق فى الحجاز وتهامة ، وبخاصة ما بين مكة والمدينة .

(١) twitchell, d.s : (1953) Saudi Arabia , p p 9.15 london

فهناك طريق الساحل الذى يسير فى تهامة ، ويستطيع سالكوه أن يعتمدوا على موارد المياه فى بطون الأودية المنحدرة من الحافة الغربية لجبال الحجاز نحو البحر الأحمر ، ومن قديم عرف العرب هذا الطريق وسلكته قوافلهم ، وعندما التقى المسلمون بقريش فى غزوة بدر كان اللقاء فى السهل الساحلى ، وإن دارت الغزوة عند أطراف الجبال ، وكانت قوافل قريش تسلك هذا الطريق إذا أرادت أن تتجنب المرور بالمدينة .

والطريق الرئيسي بين مكة والمدينة لا زال يتبع السهل الساحلي ما بين مكة حتى بدر ثم يتحرك بعد هذا إلى الشمال الشرقي مخترقا الجبال ، ليدخل المدينة من جنوبها الغربي ، وظل يطلق على هذا الطريق فترة طويلة اسم « الدرب السلطاني » .

وقد عنى الجغرافيون العرب بوصف طرق الجزيرة عامة وطرق الحج بوجه خاص وبينوا منازلها ووصفوا قراها ومياهها ويمكن أن نجد نموذجا لذلك كله فيما كتبه الهمداني[١] وكما عني به الرحالة الغربيون . ولعل أمتع وصف لهذا الطريق ما كتبه « يوركهارت » في رحلته إلى الجزيرة العربية ، وإن كان وصفه لمكة أوفى وأدق، من وصف الطريق ووصف المدينة . ويرجع هذا إلى تدهور حالته الصحية بعد مبارحته مكة في طريقه إلى المدينة[٢] .

أما الطريق الثاني فيطلق عليه الدرب الشرقي أو طريق نجد ، ويتبع هذا الطريق الحضيض الشرقي لحرة رهط وهي أكبر الحرار بين مكة والمدينة ، وتبدأ هذه الحرة شمال مكة بنحو ثلاثين كيلو مترا ، ثم يظل الطفح البركاني مستمرا حتى المدينة، وإن حملت الحرار أكثر من اسم وإلى الشرق من حرة رهط تنخفض الأرض ثم تعود

---

(١) الهمداني (١٩٥٣) صفة جزيرة العرب ، حققه محمد بن بليهد النجدي ، ط السعادة ، القاهرة

(٢) burckhardt.1 01, travels in Arabia , vol . 2pp0880137 london, 1829

إلى الإرتفاع مرة أخرى في حرة الكشب ، وتنحدر من الحرتين إلى الأرض المنخفضة، بينهما أودية ذات صرف داخلي. وإلى جنوب حرة الكشب تنخفض الأرض ثم تعود إلى الارتفاع في حرار حضن والنواصف والبقوم(١) .

على هذا يمكن أن نميز في أرض الحجاز - بمدلولها الواسع - بين السهل الساحلي، ثم الجبال الساحلية، ثم تنخفض الأرض مرة أخرى لتعود إلى الارتفاع في الجبال والحرار الداخلية، وتنحدر حافتها الشرقية إلى نجد(٢) وتتبع القوافل إما طريق الساحل، أو الطريق الشرقي بين الحرار ، وهذا الطريق أو الدرب الشرقى عنى بوصفه - من الرحالة الغربيين - برتون ، وقد سلكه من المدينة إلى مكة مكتفياً بوصف يوكهارت لطريق الساحل(٣) .

وقد قامت المساحة المصرية بدراسة مفصلة للطريق الساحلى بين مكة والمدينة ، وعنيت فى الخرائط التى نشرتها عنه بتسجيل المناسيب والأودية والجبال والقرى(٤)، كما نشرت الحكومة السعودية بالتعاون مع شركة الزيت العربية الأمريكية «أرامكو» ومصلحة المساحة الجيولوجية الأمريكية مجموعة من الخرائط عن الجزيرة العربية من أهمها خريطة شاملة للجزيرة مقياس ١ :

---

(١) خريطة جزيرة العرب ، ١: ٢٠٠٠و٠٠٠و٢ ، المملكة العربية السعودية ومصلحة المساحة الجيولوجية الامريكية،١٩٥٨ .

(٢) united kingdom, geographical section of the intelligence . division , naval staff, admi-rality : a handbook of Arabia , vol .1 ,97,(no . 1.d .1128) oxf . univ P :press , 1916

ويراجع في عرض تاريخ الرحلات في الجزيرة العربية:

Kernan, f . h. the universaling of Arabia, London , 1937

(٣) burton , sir Richard , personal narrative of a pilgime to al-madina and meccah ,vol .2pp. 51.155;London 1893

(٤) هذه المجموعة من ثمان خرائط للأقطار الحجازية بين مكة والمدينة ومقياس ١ : ١٠٠٠٠٠ صدرت فيما بين عامي ١٩٣٥- ١٩٣٧ ، وكانت عنايتها بطريق الحج الساحلي ، كما رسمت المساحة المصرية مجموعة اخرى من الخرائط المفصلة لمكة والمدينة .

٢٫٠٠٠٫٠٠٠[١] . ومجموعة من الخرائط المفصلة بمقياس ١ : ٥٠٠٫٠٠٠ بلغ عددها إحدى وعشرين خريطة يتصل منها بموضوع هذه الدراسة خريطة الحجاز الجنوبى – من خط عرض ٢٠ درجة شمالاً إلى ٢٤ درجة شمالاً ، وتشمل معظم المنطقة بين مكة والمدينة[٢] وخريطة الحجاز الشمالي والشرقى إلى خط عرض ٢٨ درجة شمالاً وتشمل منطقة المدينة وما وراءها شمالاً إلى النفود الكبير[٣] . ومع التفصيل الدقيق لهذه الخرائط ووفرة البيانات المسجلة عليها ، إلا أنها لا تعنى عناية أساسية بتوقيع المعالم الجغرافية و الأماكن التى ارتبطت بأحداث التاريخ الإسلامى، إلا ما كان له قيمة بشرية معاصرة ، ومن ثم بقيت ثغرات واسعة فى طريق الدراسة تحتاج إلى دراسات ميدانية مفصلة توقع – على خرائط جديدة هذه المعالم التى ذكرها الجغرافيون العرب فيما خلفوه من مؤلفات و معاجم وبدون هذه الخرائط سـطل الأساس الجغرافى فى دراسة التاريخ الإسلامى غير عميق ، وسيظل عامل المكان غير واضح فى تفسير أحداث هذا التاريخ .

ولنعرض الآن مراحل طريق الهجرة . .

من مكة إلى الغار

رأينا كيف أن مكة لها ثلاثة مداخل رئيسية : طريق الغرب ، وطريق المعلاة الشمالى ، وطريق المسفلة الجنوبى نحو اليمن ، ويبدو لأول وهلة أن الطريق الأول والثانى أقرب إلى المدينة من الطريق الثالث . ومع هذا فقد كان خروج النبى ﷺ للهجرة عن طريق المسفلة . أى أنه اتجه جنوباً ليتابع بعد هذا سيره شمالاً . وغار ثور الذى لجأ إليه النبى ﷺ يقع على بعد خمسة كيلو مترات ونصف إلى جنوب الجنوب الشرقى من مكة ، و ارتفاعه ٧٥٩ متر فوق سطح البحر[٤].

---

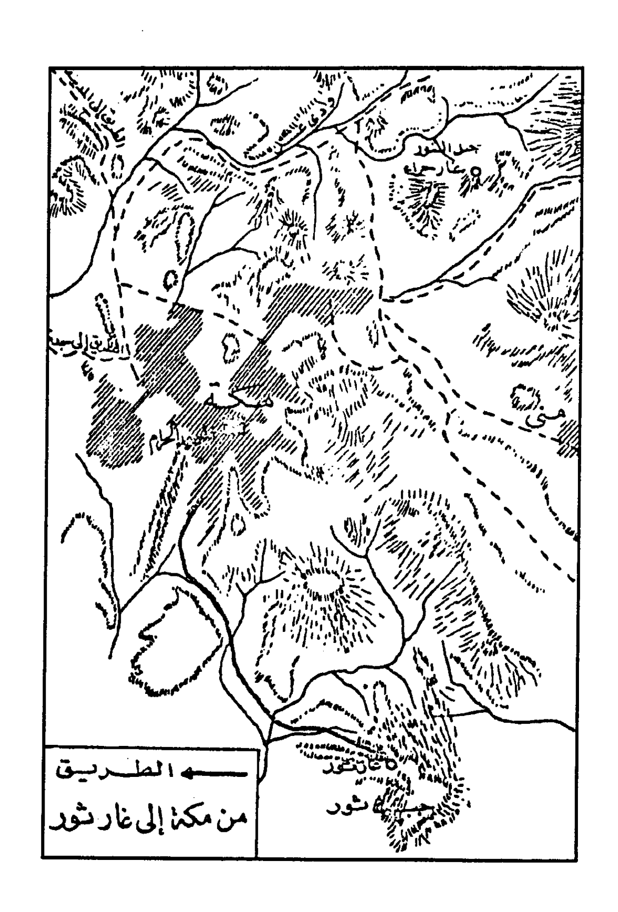
(١) صدرت عام ١٩٥٨ .

(٢) صدرت عام ١٩٥٨ بعنوان (أبحاث جيولوجية مختلفة) .

Miscellaneous geologation : map 1 . 20 b

(٣) من نفس المجموعة صدرت هذه الخريطة عام ١٩٥٩ برقم : map 1 0205 b

(٤) انظر خريطة مكة ١ : ١٠٠٫٠٠٠، المساحة المصرية ، ١٩٤٨


منى
غار ثور
جبل ثور
الطريق
من مكة إلى غار ثور

والطريق إلى الغار شاق ، حتى أن النبى ﷺ لم يصل إليه إلا بعد أن دميت قدماه[1] ، وكان من المنتظر إذن أن يبدأ البحث عن النبى فى الأجزاء الشمالية والغربية من مكة وهى المؤدية إلى المدينة ، وألا يتبادر إلى الذهن أن يسلك النبى طريق اليمن بينما المدينة هدفه .

وبقى النبى ﷺ فى الغار ثلاثة أيام ومعه أبوبكر . وفى الغار كان لابد له من تنظيم أمرين أساسيين :

١ - أن يكون على صلة بمجرى الحوادث فى مكة وما تريد قريش القيام به ، ويرتبط بهذا تدبير حصوله من مكة على طعامه وشرابه وزاده عند السفر .

٢ - أن يكون طريق الهجرة أمامه مفتوحاً إلى المدينة .

أما عن الأمر الأول فكان عبدالله بن أبى بكر يبيت عندهما فى الغار إذا أظلم الليل ثم يعود فى الفجر إلى قريش فيظن أهل مكة أنه كان معهم ويمضى نهاره بينهم يسمع ما يقولون ويرجع إلى الغار ليخبر النبى ﷺ بما كان من أمر قريش . وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما بالطعام . أما آثار الأقدام التى يتركها سير أسماء وعبدالله فتكفل بها عامر بن أبى فهيرة مولى أبى بكر . وكان يروح على الغار بأغنامه بعد أن يرعى نهاراً فيأخذ النبى ﷺ وأبو بكر ما شاءا من ألبانها ولحومها ثم يتابع سيره بالقطيع دون أن يترك وراءه أثراً ينم على سير إنسان .

وأما عن الشطر الثانى فكانت لأبى بكر راحلتان دفعهما إلى عبدالله ابن أريقط وكان دليلاً ماهراً ليأتيهما بهما عندما ينقطع الرصد والبحث عن النبى وصاحبه .

---

(١) يصف المقريزي وعورة الطريق بين مكة وغار ثور بقوله عن النبي ﷺ وأبي بكر « ومضيا إلى غار بجبل ثور، فلم يصعدا الغار حتى قطرت قدما رسول الله ﷺ دما وعادت قدما أبي بكر كأنهما صفوان » انظر امتاع الأسماع ١ :٤٠ ، والصفوان : الصخر.

ورغم هذا الاحتياط استطاع قصاصو الأثر أن يصلوا إلى فم الغار بعد ثلاثة أمضوها في البحث ولكنهم لم يتابعوا البحث فيه . وفى هذا نزل قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة : ٤٠) .

على الساحل :

وخرج النبى ﷺ من الغار مع أبى بكر بعد أن جاءهما عبدالله بن أريقط واتجه بهما غرباً إلى طريق الساحل[١] . وقد سبق القول بانحدار أودية من السفوح العربية للجبال نحو البحر ، وتمثل هذه الأودية معالم الطريق الرئيسية فى هذه المنطقة . ثم اتجه بعد هذا شمالاً متجنباً مناطق الاستقرار فى هذا النطاق ، مستفيداً فى نفس الوقت من موارد المياه الموجودة ، وإن مر فى طريقه ببعض الرعاة أو المضارب الصغيرة ، وتابع سيره شمالاً ماراً بالطريق أسفل عسفان وهى بلدة لازالت قائمة حتى الآن على واد يحمل مجراه الأعلى – شرق عسفان – اسم وادى فايده ، ومجراه الأدنى – غرب عسفان – اسم وادى غولة وينتهى دون البحر شمال بلدة دهبان .

ومر بعد ذلك بأمج ولم يرد على الخرائط الحديثة وهو واد يأخذ من حرة بنى سليم وينتهى إلى البحر[٢] ثم أجاز قديداً، وهى الآن قرية صغيرة تقع على وادى

---

(١) ذكرت كتب السير معالم طريق الهجرة وبينهما اختلافات يسيرة في بعض المعالم الصغيرة، انظر سيرة ابن هشام ٢ : ٣٦ ، ٣٧ ، زاد المعاد لابن القيم ٢ : ١٣٧– ١٤٢ ، امتاع الاسماع للمقريزي ١ : ٤١– ٤٦ ، ومرجع شكل « ٩ » خرائط المساحة المصرية والمملكة السعودية تراجع الحواشي من ٣٣ إلى ٣٦ ، وما أورده ياقوت والهمداني والبكري من وصف لمعالم الطريق.

(٢) الهمذاني ، صفة جزيرة العرب ، ١٧٠

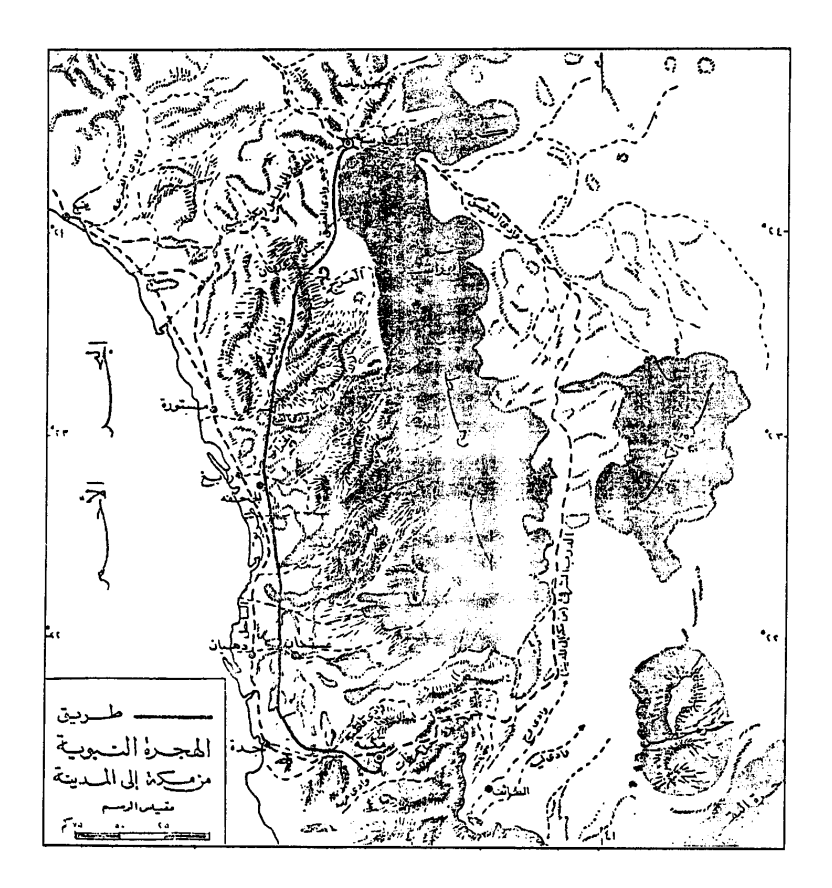
ستارة الذى ينبع من حرة رهط ويتجه إلى البحر نحو الجنوب الغربى ، ويذكر البكرى أنها « قرية جامعة مذكورة فى رسم الفرع وفى رسم العقيق وهى كثيرة المياه والبساتين(١) » ثم سلك الخرار ، ذكر ياقوت « أنه موضع بالحجاز يقال إنه قرب الجحفة(٢) » قرب رابغ الحالية، وذكر البكرى أنه واد بالحجاز على الجحفة(٣)، وتحمل هذا الاسم عيون وغدران أخرى ليست بين مكة والمدينة ، ولم يرد هذا الوادى على الخرائط الحديثة وإن ذكر الجغرافيون القدماء احتمال وقوعها قرب الجحفة .

---

(١) البكري ، (١٩) ، معجم ما استعجم ٣ : ١٠٥٤ ، نشر المعهد الخليفي للابحاث المغربية ، حققه مصطفى السقا ، ط لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة

(٢) معجم البلدان ، ٢ : ٣٥ .

(٣) البكري : ٢ : ٤٩٢ ، وقد اندثرت هذه القرية وكانت ميقات الإحرام لأهل الشام ومصر حين يقبلون للحج أو العمرة وأصبحت رابغ الآن ميقاتا . .



هذا هو القطاع الساحلى من طريق الهجرة ، ويبلغ امتداده – فى خط مستقيم نحو ١٤٠ ك م ، ولم يتبع فيه النبى ﷺ المعالم المطروقة ، وإنما كان يتجنبها ليكون فى مأمن ممن يحاول أن يقتفي أثره[١].

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣ : ١٩ ، ط السعادة، القاهرة.

وعند الجحفة سلك النبى طريق الخرار ، وهو غير الطريق المعتاد بين مكة والمدينة، وهو الذى يتابع السهل الساحلى شمال الجحفة حتى بدر ، وعندها سلك المنطقة الجبلية متجهاً إلى الشمال الشرقى حتى المدينة .

فكما أن النبى ﷺ تجنب الجادة المطرقة فى السهل الساحلى تجنبها كذلك عند سلوكه الجزء الجبلى من الطريق ، وتذكر كتب السير الثنيات والعقبات والأودية التى مر بها ، ويتبين منها أنه حتى مع اختياره هذا الطريق فإنه كان يتجنب معالمه المعروفة اختصاراً للوقت وزيادة فى الحيطة ، حتى إنه سلك فيه وادياً كان به قاطعا طريق – رغم علمه بذلك – وأسلما على يديه[١] ، واجتاز ثنية ركوبه عند العرج، وهى عقبة شاقة شديدة المرتقى يضرب بها المثل[٢].

وبعد أن عبر عدة أودية هبط بهما الدليل العرج ثم هبط وادى العقيق وهذا الوادى – لأهميته – تسجله الخرائط الحديثة ، أما المعالم التى سلكها الرسول ﷺ بين الساحل ووادى العقيق فلا نجد لها أثراً فى هذه الخرائط .

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية، ٢٠ : ١٩٥ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان، ٢ : ٦٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية، ٣ : ١٩٥ .



وقد تتبع النبى ﷺ وادى العقيق إلى قباء، وهى قرية صغيرة إلى جنوب المدينة، وأقام بها أربعة أيام ، وأسس فيها مسجداً ، ولحق به فيها علي بن أبى طالب بعد أن رد الودائع ، ثم وصل الرسول ﷺ المدينة فى ١٦ من ربيع الأول يوم الجمعة وخطب الناس بها لأول مرة..

خاتمة

يمكن أن نلخص هذا العرض فى النقط الآتية :

١ – أن المجال الجغرافى للهجرة كان عربياً .

٢ – مع وقوع كلاً من مكة والمدينة على محور الواحات الممتد من اليمن إلى الشام – على سفوح مرتفعات الحجاز – إلا أن اقتصاد مكة كان دينياً وتجارياً ، بينما كان اقتصاد المدينة زراعياً تساهم فيه التجارة بنصيب محدود .

٣ – أن ظهور الإسلام فى قريش أول الأمر أدى إلى صراع بينه وبينها اضطر معه الرسول ﷺ وصحبه إلى الهجرة ثم فتح مكة . وبقيت فى قريش الزعامة الدينية بعد إسلامها .

٤ – أن التكوين السكانى للمدينة أعدها – عقلياً – لقبول الإسلام وإن لم يعطها الفرصة لتجتمع على رأى موحد كما حدث فى مكة . من أجل ذلك كان لتعدد القبائل والأديان أثره فى إعطاء مجال أوسع يعمل فيه الإسلام .

ونستطيع أن نقارن فى هذا أيضاً بين المدينة والطائف ، فعندما ذهب النبى ﷺ إليها لقيه زعماء ثقيف ولم يقبلوا منه الإسلام . وكانوا أول أمرهم على رأى واحد حتى استقر الإسلام فى المدينة . ولم تدن ثقيف – كقبيلة للإسلام – إلا بعد فتح مكة وغزوة حنين .

وهذا التكوين السكانى للمدينة له ارتباطه بموقعها على محور الواحات بين اليمن والشام ، واستيطان اليهود فى بعض واحاته وبخاصة فى المدينة ووادى القرى، وله ارتباطه أيضاً بدورات الجفاف فى الجزيرة العربية وهى التى دفعت عرب الجنوب إلى الهجرة منها فاستوطن الأوس والخزرج المدينة . وكان لهم –

بحكم ظروف البيئة الطبيعية – اقتصادهم الزراعى المتميز عن الاقتصاد القرشى – وحريتهم فى اختيار موقفهم من الدين الجديد ، وعدم إجماعهم على زعامة واحدة قبل الإسلام ورجوا أن يجمعهم الله على رسوله ﷺ .

٥– ومع هذا كله فإن المهاجرين لم ينسوا مكة – حرم الله – والنبى ﷺ عندما خرج منها نظر إليها مناجياً : «أما والله إنى لأخرج منك وإنى لأعلم أنك أحب البلاد إلى الله ، وأكرمها على الله ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت»[١].

وبقى هذا الحنين إليها فى نفوس المهاجرين وهم فى المدينة ، يتغنون بها فى أشعارهم ويذكرونها فى مجالسهم، وكان لإختلاف مناخها عن مناخ مكة الجاف أثره فى صحة نفر من المهاجرين[٢] ومع هذا بقوا فى دار الهجرة بعد فتح مكة.

٦– أن الطريق الذى سلكه الرسول ﷺ فى هجرته بدأ باتجاه جنوبى مع أن المدينة في الشمال ، ثم اختبأ فى الغار وفى هذا ما يدل على معرفة سابقة بما حول مكة من جبال وغيران ، ثم تتبع طريق الساحل غير سالك منازله المطروقة ، ثم سلك الخرار متجها إلى الشمال الشرقى متبعا طرقا وعرة يضرب المثل بوعورتها – حتى هبط العرج ، ثم وادى العقيق إلى قباء ، ثم المدينة واتخذها دار هجرته وقاعدة لنشر الإسلام .

---

(١) الأزرقي ، اخبار مكة، ٢ : ١٢٥ .

(٢) الأزرقي ، اخبار مكة ، ٢ : ١٢٣ –١٢٤ .



الفصل الرابع

من وحـــي المدينـــة



يقول الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ② وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ③ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (الجمعة : ٢-٤) .

فكانت هذه الآية مصداقاً لدعوة إبراهيم عليه السلام حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وجاء هذا الخير عاماً للإنسانية كلها فى قوله تعالى : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ .

ففى هذه الأيام المشهودة نرى اجتماع الحجيج من مشارق الأرض ومغاربها مؤمنين بالله مصدقين برسوله ﷺ على تباعد القرون وتنائي الديار فنحن جميعاً ندخل فى عموم قوله تعالى : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ③ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

وإذا كان حديثنا بالأمس عن الحج وقصة إبراهيم عليه السلام ، وكان مجال الحديث مكة وما حولها ، فحديث اليوم مجاله الأول دار هجرة الرسول ﷺ كقاعدة الإسلام الأولى . وبهذا نضم فى اليومين حديث المسجدين ومن ربنا نستمد العون ونسأل الرشد .

ولعل من الأفضل فى حديثنا عن المدينة كقاعدة الإسلام أن ننظر إلى حياة الرسول ﷺ فيها نظرة شاملة نحاول بها أن ننظم الأحداث الجزئية فى صورة كلية تعرض بها القوى الداخلية فى المدينة والخارجية حولها وتحدد مراكز الخطر على هذه الجبهة ، وكيف استطاع الرسول ﷺ والمؤمنون أن يقابلوها ويتغلبوا عليها .

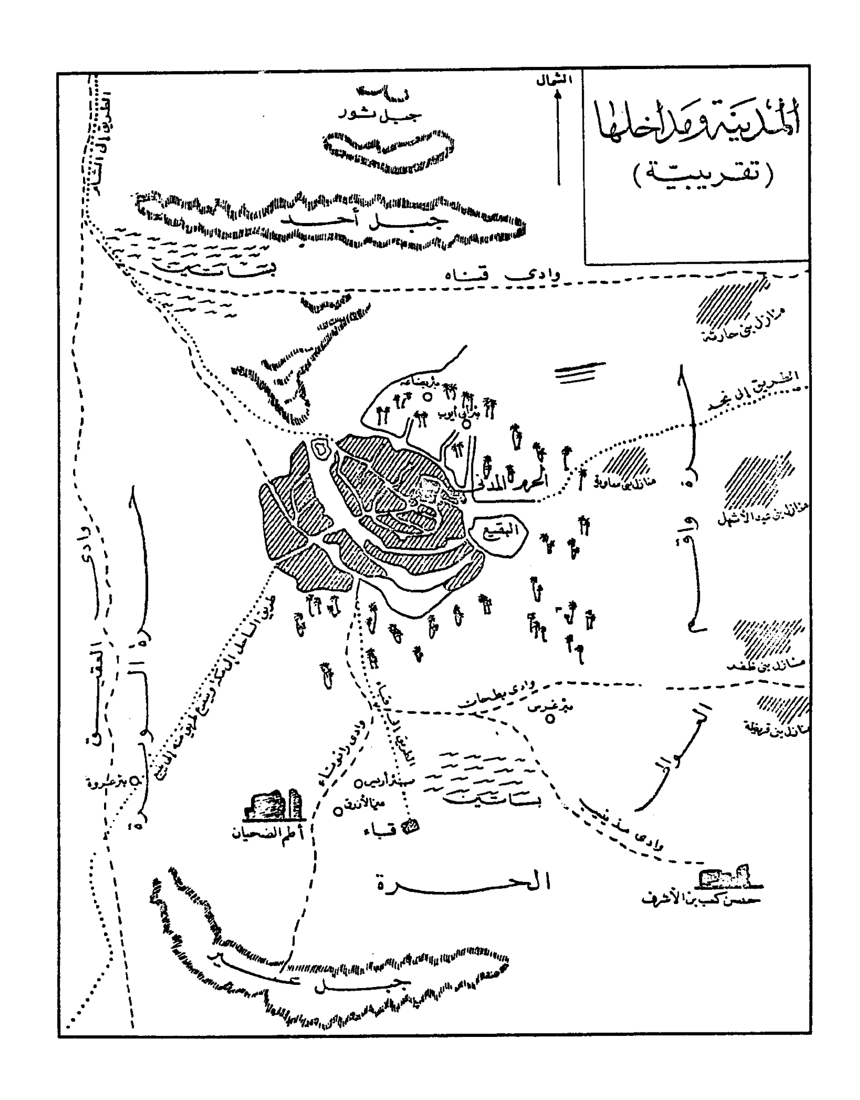
ومن هذه النظرة إلى مجتمع الرسول ﷺ فى المدينة نستطيع أن نستمد وعياً عميقاً بتاريخنا نسير على هداه فيما بين أيدينا من قضايا تقابلنا فى حياتنا .

وإذا كانت مكة قد تمتعت بأنها حرم الله من أقدم عصور الحياة فيها عندما كرمها الله باختيارها مكاناً لبيته ، فإن المدينة لم تتمتع بهذه الحرمة إلا بعد هجرة الرسول إليها . وهى حرمة لا يدين بها غير المسلمين . ومن أجل ذلك كان على المدينة – قبل الإسلام وفى أيام النبى ﷺ قبل الفتح – أن تحمى نفسها بنفسها ، وانعكس هذا على نظام مبانيها حيث الدور والحصون القوية .

والتكوين الاجتماعى للمدينة قبل الإسلام يختلف عن مكة فقد سكنتها مع الأوس والخزرج قبائل اليهود : من بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة . ولم يكن فى المدينة التماسك الاجتماعى الذى عرفته قريش فى مكة ، وإنما كانت فى المدينة فرقة من أهم مظاهرها ما كان بين الأوس والخزرج أنفسهم من حروب وما كان بينهم وبين اليهود .

وقد استطاع الأوس والخزرج أن يوقفوا سطوة اليهود وأن يصبحوا أعز أهل المدينة واتخذوا فيها الحصون ورجوا حين لقوا الرسول ﷺ فى موسم الحج أن يجمع الله كلمة العرب على يديه .

وكان أكثر تركيز اليهود فى الأجزاء المرتفعة فى المدينة فى الجنوب والجنوب الشرقى و الشرق ، بينما كان الأوس والخزرج منتشرين فى الأجزاء المرتفعة والمنخفضة ...و إذا كان مجئ اليهود من الشام حيث حياة زراعية مستقرة فإن مجئ الأوس والخزرج كان من اليمن حيث بيئة مشابهة فى بعض الوجوه لبيئة الشام . ومن المنتظر أن يحدث تنافس على موارد المياه وأن تكون هى ومشكلة توزيع الأرض الزراعية من أهم ما قابل المجتمع الجديد فى تكوينه .



المدينة ومداخلها
(تقريبية)
الشمال
جبل ثور
جبل أحد
بساتين
وادي قناة
منازل بني حارثة
الطريق إلى نجد
منازل بني ساعدة
منازل بني عبد الأشهل
البقيع
منازل بني ظفر
وادي بطحان
منازل بني قريظة
بساتين
قباء
أطم الضحيان
الحرة
حصن كعب بن الأشرف
جبل عير

اليهود بهذا كانوا يسيطرون على بعض المواضع الحاكمة فى المدينة لارتفاعها وعلى جانب له خطره من الأرض الزراعية على أكثر موارد المياه فيها، وجمعت لهم هذه الجوانب الثلاثة : الموقع والأرض والماء ، عناصر قوة يمكن أن تهدر المجتمع كله إذا وجدت من الخارج نصيراً . . .قصة بالأمس لها صورة حديثة اليوم تمثلها إسرائيل بتعاونها مع قوى الاستعمار .

الجبهة الداخلية في المدينة

وكان فى اليهود اعتزاز بقوتهم واستهانة حتى بأساليب العرب فى القتال وعبروا عن هذا بوضوح عندما دعاهم الرسول ﷺ إلى الإسلام بعد غزوة بدر وانتصاره فيها فقالوا له فى سوق بنى قينقاع : « يا محمد لا يغرنّك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة . إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس . . » . . فلا هم أسلموا ولا خضعوا عملياً ، وإنما أرادوا أن يبقوا فى المدينة لهم فيها تميزهم واستقلالهم .

ولاشك فى أن مشكلة اليهود كانت أكثر تعقيداً من أية مشكلة أخرى قابلها الرسول ﷺ فى تنظيم حياة المدينة . وكان الحصن الأول الذى يقى المسلمين من أخطارها إيمانهم بربهم وطاعتهم نبيهم طاعة تشمل الإذعان الظاهرى والانقياد القلبى بلا حرج ولا ضيق ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ (النساء : ٦٥) .

إيمان استطاع أن يرتفع فوق الثارات والأحقاد القديمة التى حاول اليهود إثارتها بين الأوس والخزرج عندما رأوا اجتماعهم حول الرسول ﷺ ، وأفلحوا فى هذا مرة حتى كاد القوم أن يتقاتلوا وتواعدوا إلى الحرب فجاءهم الرسول ﷺ يذكرهم

بإيمانهم ويبصرهم بالخطر الذى يمشون إليه و يقول : «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟» . وفى هذا جاء قول الله : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ (آل عمران: ١٠٣)، وإخاء ينبغى أن يضم المهاجرين والأنصار يسجله الله فى قوله تعالى واصفاً الأنصار: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر: ٩).

ومع أن النبى ﷺ عقد عهداً بين المسلمين – من مهاجرين وأنصار – وبين اليهود إلا أن التجربة العملية أثبتت نكث اليهود العهد ، وأنهم كانوا – دائماً – يتربصون بالمسلمين الدوائر ويتعاونون مع أعدائهم ويحاولون أن يفرقوا كلمتهم. . .فكيف قابل الرسول ﷺ هذا الخطر الجاثم فى المدينة ؟ نترك الإجابة عن هذا السؤال إلى قريب.

الجبهة الخارجية للمدينة

وكان هناك خطر يتمثل فى قريش ومن معها ويحالفها من القبائل . وقريش كانت لها منزلتها الدينية والاقتصادية فى الجزيرة وارتباطها الوثيق بالحرم وتشددها فى أمر الدين حتى سموا الحمس (أى المتشددون فى أمر دينهم) . ولم يكن من اليسير عليها أن ترى قوة الإسلام تزداد فى المدينة وهى على طريق تجارتها إلى الشام . فإذا ما أضفنا إلى العاملين الدينى والاقتصادى ما يصيب مكانة قريش من اهتزاز نتيجة ارتفاع شأن الإسلام ، استطعنا أن نرى بعض الخيوط التى شكلت موقف قريش ودعتها إلى البدء بمهاجمة المسلمين وحددت الصراع بينهم وبين قاعدة الإسلام فى المدينة .

فقريش إذاً كانت لها روابطها التجارية مع الشمال والجنوب وتستطيع أن توفر عن طريقها ما تحتاج إليه من سلاح وعدة حرب . ولها نظامها الاجتماعى الذى تستطيع به أن توزع الأعباء فى المعارك مع الإسلام . ولها ارتباطاتها مع القبائل على كل من طريقي التجارة بحيث تستطيع أن تؤمن الطريق . ولها زعامتها التى تستطيع أن تجمع بها قوى خطيرة تقابل بها الإسلام والمسلمين.

اجتماع الجبهتين

ولاشك فى أن أخطر الخطر أن يجتمع على الرسول ﷺ ضغط خارجى تمثله قريش ومن حالفها وضغط داخلى يمارسه اليهود من قلب القاعدة فى المدينة وأن يكون ذلك بتحالف بين القوتين .

وبين هذين الخطرين كان على الرسول ﷺ أن يقود المسلمين حتى يأمنوا فى المدينة أمناً حقيقياً وينطلقوا منها للدعوة إلى دين الله .

ولم يكن خطر اليهود مقتصراً على من يساكنون النبى ﷺ فى المدينة – وقد كانت بين هؤلاء وبين الأوس والخزرج أحلاف من قبل – وإنما كانت هناك منطقة خطر أخرى إلى شمال المدينة فى خيبر وفدك وتيماء ووادى القرى يسكنها اليهود، ولهم فيها أرض زراعية ومياه وحصون، ولهم قدرتهم على إيواء من يفد إليهم من يهود المدينة ومدهم بالعون إذا شاءوا .

بين الأمس واليوم

ولا زال الخطر اليهودى الذى تهدد قاعدة الإسلام والمدينة يتهدد وطننا الكبير الآن و تمثله إسرائيل بما انتزعت من أرض غالية فى قلب الوطن العربى والإسلامى واستطاعت بهذا الموقع الاستراتيجى أن تقطع الصلة البرية الوحيدة بين القطاعين الأفريقى والأسيوى من وطننا . ثم هى دائبة فى محاولة تدعيم وضعها عبر الشروع

بمعاهدات واتفاقات مع بعض الدول الإسلامية لا تخرج فى طبيعتها عن الحلف أو الولاء الذى كان بين الأوس والخزرج قبل الإسلام حتى طهرهم الله منه بدينه والعمل لإعلاء كلمته.

ثم هى تستند فى وجودها إلى تدعيم قوى خارجية عن وطننا يمثلها الاستعمار العالمى . ونقطة الخطر الكبرى تأتى من التعاون بين هذا الخطر الجاثم على صدر العالم العربى و الإسلامى وبين الاستعمار العالمى ، بينما تقع بعض قطاعات وطننا الكبير فى شباك ارتباطات لن يستفيد منها إلا إسرائيل قبل أى مستفيد آخر.

ولنعد إلى رسولنا صلى الله عليه وسلم لنرى كيف استطاع أن يتغلب على هذه الأخطار التى قابلته أحياناً منفردة وأحياناً متجمعة، وكيف استطاع بعد سنوات قليلة من حياته فى المدينة أن يأخذ زمام المبادأة ، وأن يتحكم فى سير الأحداث بعد أن كان تحرك المواقع واختيار زمان ومكان المعارك فى يد قريش باعتبارها أضخم قوة عسكرية وقتئذ فى الجزيرة ، و هو الوضع الذى ورثه الإسلام.

مراحل الجهاد

فى ضوء النظرة الشاملة لحياة الرسول القائد ﷺ فى المدينة نستطيع أن نقسم مراحل الجهاد التى خاضها المسلمون لتأمين قاعدة المدينة إلى ثلاث :

١ – ما قبل غزوة الأحزاب .

٢ – غزوة الأحزاب .

٣ – ما بعد غزوة الأحزاب . وهذه المرحلة الأخيرة يمكن أن نميز فيها بين ثلاث خطط :

(أ) الخطة الشمالية الأولى لتصفية مشكلة اليهود.

(ب) الخطة الجنوبية لتصفية مشكلة قريش.

(ج) الخطة الشمالية الثانية لمواجهة الروم ، وهى الخطة التى استمرت قروناً متعددة بعد عهد النبوة ولا زالت فى بعض صورها حتى الآن.

فهناك أولاً ، تدفق فى هذا التيار المنطلق إلى هدفه لا نستطيع عزل مراحله وقطاعاته عن بعضها البعض ، كذلك لا نستطيع أن نفهم تطور الأحداث فى المدينة إذا عزلناها عن الواقع العربى فى الجزيرة وما وراءه وقتئذ فى أرض الروم والفرس والحبشة ، وبعبارة أخرى ؛ لا نستطيع فهم الواقع الإسلامى فى المدينة إذا ما عزلناه عن الأحداث العالمية وقتئذ.

ما قبل غزوة الأحزاب

وأهم ما تتميز به هذه المرحلة أن خطة الرسول ﷺ كانت تقتضى بأن يقابل كل عدو من أعدائه على حدة.

وإذا كان الرسول ﷺ قد آخى بين المهاجرين والأنصار ونظم علاقاتهم وعقد مع اليهود صلحاً . صرح بأن سلم المؤمنين واحدة وأن مرد أى خلاف فى الصلح إلى الله ورسوله، وأن لا تجارة مع قريش ولا مع من نصرها ، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب مع أن الرسول ﷺ قام بهذا كله ، إلا أنه لم يكتف به ، وأخذ فى إرسال السرايا والبعوث يتحسس بها الجو حوله ويرصد حركات قريش لئلا تؤخذ المدينة على غرة.

وإذا كانت قريش قد فوجئت بثبات المسلمين فى غزوة بدر وانتصارهم رغم قلة عددهم ،فإن اليهود حاولوا من جانبهم أن يهونوا من شأن هذا النصر واستهزءوا

بحرمات المسلمين مما أدى إلى الصدام بين الرسول ﷺ ويهود بني قينقاع فهزمهم الرسول ﷺ وأخرجهم من المدينة.

فهنا لا نستطيع أن نفصل بين ما كان يحدث فى المدينة وخارجها بين الصراع مع قريش وانعكاساته الداخلية فى المدينة وتحركات اليهود فيها ومحاولتهم التحرش بالمسلمين بعد أن عادوا من معركة خارجية – وثمت انعكاس آخر يأخذ قمة ثالثة بعد غزوتى بدر وبنى قينقاع ، ويتبلور فى غزوة أحد وفيها تحشد قريش قوة تعادل ثلاثة أمثال ما جمعته فى بدر وتصل إلى مشارف المدينة وتدور معركة قاسية انتصر المسلمون فى أولها ، ولولا مخالفة الرماة عن أمر الرسول لتم النصر الإسلامى فى روعته وقوته.

ويسقط الشهداء فى المعركة والجرحى وينتهز يهود بنى النضير الفرصة فيحاولون قتل الرسول ﷺ عندما ذهب يستعين بهم فى دية قتيلين معاهدين ، وذلك تنفيذاً للصلح المعقود بينهما ، و تخرج المدينة من معركة إلى معركة ، ويحاصر الرسول ﷺ حصون بنى النضير، ويشدد عليهم الحصار رغم ما تحملت المدينة من تضحيات فى غزوة أحد ، فلا يجد اليهود إلا التسليم والرضوخ لمنطق الحزم الذى لا يفهمون منطقاً غيره، ويخرجون من المدينة : بعضهم إلى الشام والبعض إلى خيبر، وتتكرر نفس القصة التى حدثت بغزوة بدر ، وكأنها معادلة رياضية :

– بدر . . ومن ورائها تحرك يهود بنى قينقاع.

– أحد . . ومن ورائها تحرك يهود بنى النضير.

وإذا كنا نرى الحدث الأول – جدلاً – صدفة ، فهل يكون الثانى كذلك ؟

ألا يدل هذا دلالة واضحة على نوع من التحالف ، أولاً : التعاهد السرى بين اليهود باعتبارهم نقطة الضعف فى قاعدة المدينة ، وبين العدو الخارجى الذى يمثله

العدوان القرشي ومن يدور فى فلكه من قبائل العرب .

هذا التعاون بين القوى المعادية للمد الإسلامى فى داخل الوطن العربى وخارجه يكاد يكون قانوناً سار عليه الصراع أو يسير عليه الصراع فى تاريخنا كله .

وتنتهى هذه المرحلة الأولى بتصفية قواعد العدوان اليهودى فى المدينة : يهود بنى قينقاع ويهود بنى النضير ، ولا تبقى إلا قاعدة ثالثة هى يهود بنى قريظة . بينما تدعمت قوة اليهود الشمالية فى خيبر وما حولها بمن هاجر إليهم من يهود المدينة .

و أصبح توزيع القوى كما يلى :

– قوة إسلامية مركزة فى المدينة وفيها جيب يهودى خطر .

– قوة يهودية مركزة فى الشمال فى مناطق خيبر وما حولها .

– قوة قريش مركزة فى قلة ومن حولها مجموعة من القبائل المتحالفة .

– قوة الروم على أطراف الجزيرة الشمالية تتربص بالمسلمين الدوائر .

غزوة الأحزاب

وإذا كانت قريش قد أحست أن الهجوم الجزئى على المدينة غير مجد فقد حاولت أن تقوم بهجوم شامل على القاعدة نفسها مستعينة بحلفائها من القبائل ومحركة اليهود فى نفس الوقت إن استطاعت .

وإذا كانت معركة بدر بعيدة عن المدينة ، ومعركة أحد على أطراف المدينة فلتكن غزوة الأحزاب فى قلب المدينة إن استطاعت قريش ذلك .

ويبدو من استراتيجية قريش فى هذه الغزوة أنها كانت ترمى إلى القضاء على الإسلام وعلى قاعدته التى منها يتحرك ، لم تكن حرباً موجهة إلى جيش بقدر ما كانت حرباً موجهة إلى القاعدة نفسها ، إلى الأرض التى يتحرك فوقها الإسلام وتنطلق منها زحوف المسلمين الظافرة.

من المنتظر فى هذا الموقف أن نجد تعاوناً بين اليهود وبين قريش .. فيهود بنى النضير بعد خروجهم - يذهب زعماؤهم إلى مكة يشجعون قريشاً على الهجوم المباشر ويمدونهم بما يستطيعون من معلومات وعدة تعينهم على هذا الأمر، وإذا كانت تحركات بنى النضير فيما بين بدر والأحزاب سافرة بعد خروجهم من المدينة ، فإن بني قريظة كان يبدو عليها السكون.

واتبع المسلمون فى غزوة الأحزاب ما أشار به سلمان الفارسى من حفر الخندق فى الجزء الشمالى من المدينة ، على أن تحميها الحرتان من شرق وغرب والحصون القوية فى الأجزاء الجنوبية . .. أى أن جزءاً من تمام الدفاع عن المدينة كان معتمداً على العهد الذى بين الرسول ﷺ وبني قريظة ، وكانت منازلهم و حصونهم فى الجنوب الشرقى من المدينة . .ونستطيع أن نتصور الموقف وخطورته :

المنافقون يتسللون من الرسول ﷺ فى حفر الخندق . الجهد الكبير المبذول مع قلة القوت وقسوة الجو . قوى الأحزاب المتجمعة التى تريد اختراق الخندق .

موقف يصفه الله بقوله : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا**﴾ (الأحزاب: ٩-١١).

ونستطيع أن نتصور النتيجة لو استطاع الأعداء اختراق الخندق أو نقض بنو قريظة عهدهم مع الرسول ﷺ ، وسمحوا بمرور الأحزاب من القطاع الذى تركه الرسول ﷺ تحت حمايتهم ، أو انقضاضهم على الرسول ﷺ فى هذا الموقف الحرج، ولما طال الحصار سعت قريش إلى بنى قريظة لفتح هذه الجبهة الجنوبية ، وأحس الرسول ﷺ بالمفاوضات الدائرة ، واستطاع الصحابى الجليل نعيم بن مسعود أن يوقع بين اليهود وقريش ، وأثار شك كل طرف فى الآخر . وبينما كانت عواصف الشك تجتاح نفوس اليهود وقريش ، هبت عواصف عنيفة على المدينة اقتلعت خيام قريش وأطفأت نيرانها ، فأمست فى ظلمات من الليل والشك وسوء المنقلب ، وانكشف الصباح عن معسكر قريش وقد فرغ من رجاله وفرسانه وحصون اليهود فيها عيون تدور بالتوجس من نتائج مؤامرة الأمس.

لم يطو النبى ﷺ أعلام المعركة بعد هذا الكفاح المرير ، وإنما اعتبر المعركة مستمرة، ونادى مناديه : من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة . وتوافد المسلمون واستمر حصارهم بني قريظة فى حصونهم خمساً وعشرين ليلة فاضطروا إلى التسليم ، وسجل الله نتيجة المعركتين – الخندق وبني قريظة – أو المعركة الواحدة المتصلة – فى قوله تعالى : ﴿ **وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا** (أى قريشاً وحلفاءها من غطفان وغيرها من القبائل) **بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ** (وهم يهود بنى قريظة) **مِن صَيَاصِيهِمْ** (حصونهم) **وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا** ﴾ (الأحزاب : ٢٥–٢٧) .

وبهذا استطاع الرسول ﷺ تطهير المدينة تطهيراً كاملاً من اليهود ولم تبق فيها إلا فلول المنافقين ، وتحددت مناطق فى جبهة اليهود الشمالية ، خيبر وما حولها وما وراءها شمالاً من أرض الروم وجبهة مكة الجنوبية – قريش ومن حالفها .

تمثل مرحلة جديدة لها خطة جديدة مع وحدة الهدف ، وبعبارة أخرى : مع ثبات الهدف الذى رمت إليه سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم الجديدة نجد تغييراً فى الأسلوب – أو التكتيك – الذى استخدمه للوصول إلى الهدف.

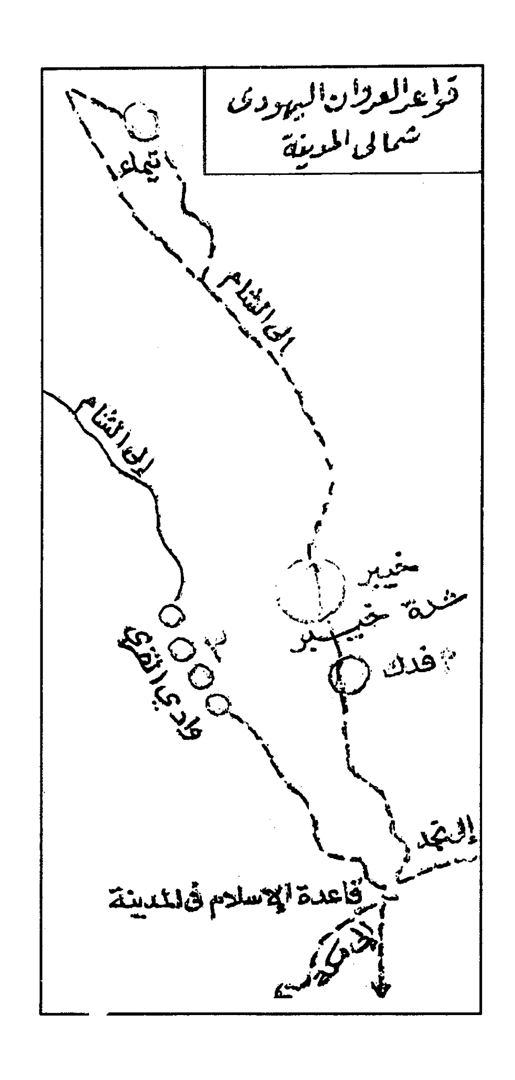
وهنا نستطيع أن نلمس جانباً من مرونة الإسلام ورحابته التى تمكن الذين يتبعونه بإحسان من أن يجابهوا المشكلات المتجددة التى تعترضهم فى حياتهم المتطورة. وكيف فصل الرسول ﷺ بين اليهود فى الشمال وقريش فى الجنوب ، وحال دون هجومهم المشترك عليه ؟ يبدو فى هذا أهمية توقيت صلح الحديبية الذى عقده الرسول ﷺ مع قريش ومن دخل فى حلفها ، و كانت مدة العهد كما نعلم عشر سنين ورأت قريش فى ذلك راحة لها – إلى حين – من عناء حرب النبى ﷺ والذين يدخلون فى عهده ، وظنت نفسها منتصرة حين شرطت أن يعيد الرسول ﷺ إليها من أتى إليه بغير إذن وليه ، ومن جاء قريشاً من رجال محمد ﷺ لم يردوه عليه ، ومن أحب من العرب محالفة محمد ﷺ فلا جناح عليه، ومن أحب من العرب محالفة قريش فلا جناح عليه . وأن يرجع محمد ﷺ وأصحابه عن مكة عامهم هذا على أن يعودوا إليها معتمرين فى العام الذى يليه فيدخلوها ثلاثة أيام ، ومعهم السيوف فى قربها ولا سلاح غيرها.

وسرعان ما بدت أعماق هذا العهد ، فقد فرغ الرسول ﷺ إلى تصفية الجبهة الشمالية – جبهة اليهود فى خيبر وفدك وتيماء ووادى القرى – وتحول المسلمون الذين فروا من مكة و لم يقبلهم الرسول ﷺ إلى قوى محاربة خفيفة مستقلة تقطع الطريق على تجارة قريش دون مسئولية يتحملها الرسول ﷺ ولا إلتزام منه بإعادتهم إلى قومهم.

وأفاقت قريش فنقضت العهد ، وبذلك أصبح الطريق أمام الرسول ﷺ مفتوحاً إلى مكة، وتم هذا فى العام الثامن للهجرة . ومن وراء ذلك جاءت مواقع حنين والطائف .

وعندما تحركت قوى الروم على الأطراف الشمالية للجزيرة العربية جاءتهم جيوش الإسلام فى غزوتى مؤتة وتبوك – وهى كبرى غزوات الرسول ﷺ عدداً ، وحدث فى طريق العودة منها آخر مرحلة من مراحل التآمر بين الروم والمنافقين فى المدينة – عندما حاول المنافقون قتل الرسول ﷺ فى الطريق فأنجاه الله منهم ثم أمر بعد عودته بإحراق المسجد الذى اتخذه المنافقون ﴿ ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (التوبة : ١٠٧) .

ومسجد الضرار هذا كان المكان الذى تصل إليه رسل أبى عامر الراهب ورسائله، وكان الرجل من أهل المدينة ثم فر منها بعد غزوة أحد ، وأصبح عميلاً من عملاء الروم المتآمرين على الرسول ﷺ وعلى القاعدة الإسلامية فى المدينة .


قواعد العدوان اليهودى
شمالى المدينة
تيماء
إلى الشام
إلى الشام
خيبر
فدك ٣
وادي القرى ٢
إلى نجد
قاعدة الإسلام في المدينة
إلى مكة

خطوط رئيسية

(أولا) يبدو من هذا كيف أن الرسول ﷺ قابل أعداء متعددين:

– اليهود والمنافقين فى المدينة .

– اليهود فى القطاع الشمالى من الجزيرة العربية فى مناطق خيبر وما حولها .

– قريش فى مكة ومن حالفها من قبائل العرب .

–الروم على الأطراف الشمالية من الجزيرة العربية .

وهؤلاء الأعداء كانوا يعملون متعاونين للقضاء على قاعدة الإسلام فى المدينة، وكان هناك تحالف بين قريش ويهود المدينة ، وتحالف بين المنافقين والروم على يد أبى عامر الراهب ، وتعاون بين من خرج من يهود المدينة ومن كان فى أرض خيبر.

(ثانيا) وإن النظرة الجزئية أو الموضعية لحياة الرسول ﷺ فى المدينة لا يمكن أن تفسر لنا خطة الرسول ﷺ الشاملة لمقابلة أعدائه وأن هذه الأحداث كانت مترابطة متدفقة بحيث ينبغى علينا أن نخرج منها بعبرة كبرى : هى النظرة الشاملة للأحداث التى يمكن بها على هدى وبصيرة تحديد مناطق الخطر على الإسلام سواء كانت فوق أرضه أو خارجها والتحالف أو التعاون بين هذه القوى الداخلية والخارجية واتخاذ المنهج السليم والتوقيت الدقيق الذى يعين على مقابلة هذا العدوان وتصفية جبهاته وجيوبه.

وإذا ما كانت غزوات الرسول ﷺ سبعاً وعشرين وكانت سراياه التى بعثها مائة، فكيف استطاعت قاعدة الإسلام فى المدينة أن تتحمل هذه النفقات جميعاً ، فضلاً عن الضغوط والمؤمرات التى حاكتها أيدى المنافقين واليهود وقريش والروم ؟

إن الحرب إذا كانت تستند إلى الإيمان فهى أيضاً تستند إلى قوة المادة . وقد جمع الله ذلك فى قوله : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ (الأنفال : ٦٠) ، والخيل وقتئذ كانت القوة الضاربة السريعة الفعالة فى المواقع ، والقوة تشمل كل ما يتقوى به الجيش مادياً ومعنوياً ، وشرط هذا الإعداد أو مستواه المطلوب هى قدرته على إرهاب الخصم ، ففى مجتمعنا المتطور نصيب أمر الله فى القوة الرادعة المعاصرة : السلاح الجوى ، الصواريخ، الذرة ، ويصبح الإعداد العلمى والمادى والمعنوى لها تنفيذاً لأمر الله واستجابة له عندما يدعونا إلى ما يصون أرضنا .

وإذا كان العدو الجاثم فى قلب وطننا العربى والإسلامى هو إسرائيل ومن يساندها من قوى الاستعمار العالمى ومن يدور فى فلكها ممن يعيشون فوق أرض الإسلام ، فإن التفوق عليه فى السلاح المادى والمعنوى ضرورة دينية كما أنه ضرورة قومية . وهذا التفوق يقتضى تنظيماً اجتماعياً واقتصادياً للمجتمع وتعبئة عامة وتخطيطاً شاملاً للمجتمع بحيث تتجه قواه بعد تنظيمها إلى هدفها فى وحدة وفاعلية . ولننظر إلى جوانب مما صنعه رسولنا ﷺ فى هذا المجال :

١ – أول إجراء اتخذه الرسول ﷺ هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وأثنى الله على ما بدا من الأنصار من حب للمهاجرين وإيثار فقال : ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا**

وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر: ٩).

٢ – ما بذله المهاجرون من جد اقتصادى فى المدينة تعبر عنه كلمة عبدالرحمن بن عوف المهاجرى لسعد بن الربيع الأنصارى ، إنى رجل تاجر فدلنى على السوق، وقد نشط نفر من المهاجرين فى التجارة واستطاعوا بهذا أن يكسبوا للإسلام قوة اقتصادية كانت فى خدمة العقيدة والإعداد الحربى دفاعاً عنها .

٣ – ما قام به الرسول ﷺ من توزيع الأرض التى أفاءها الله عليه من اليهود. وذهبت هذه الأرض إلى فقراء المهاجرين . وتحول هؤلاء من حياة التجارة أو الرعى التى ألفوها إلى حياة الزراعة وما فيها من خبرات كانت جديدة عليهم.

٤ – واتصل بتوزيع الأرض وتوسيع القاعدة الاقتصادية الإسلامية فى مجتمع المدينة ظهور مشكلات تتعلق بتوزيع المياه ، وهذه لها خطرها فى مجتمع ترتبط الحياة فيه ارتباطاً ظاهراً بمشكلة المياه من حيث الكم والتوزيع معاً، و قضى الرسول ﷺ فى أكثر من حالة بأن الماء إلى الكعبين لا يحبس إلا على الأسفل : لا يستطيع الذين فى الأعلى أن يستأثروا بالماء لأنفسهم ، وإنما لهم فيه نصيب وللذين فى الأجزاء المنخفضة نصيب . وتحقق بهذا اشتراكهم فى الاستفادة من هذه الموارد المتاحة.

٥– وارتبط به أيضاً محاولات فتح طرق تجارية تربط المدينة بمناطق الغنى النسبى حول الجزيرة العربية وهى الموارد التى بنت عليها قريش مكانتها الاقتصادية.

فكأن قاعدة الإسلام الاقتصادية فى المدينة قويت فى الاتجاهات الآتية :

(ا) اتساع القاعدة بما استعادته من أراضى اليهود.

(ب) تنوع حرف المسلمين بما أضافوه من نشاط زراعى وتجارى داخلى وخارجى ، نظموا روابطه وحموها من العدوان .

(ج) ضم قوى جديدة إلى القاعدة فى المدينة : زراعية كما فى خيبر وما حولها ورعوية كما فى القبائل التى انضمت إلى حلف المسلمين أو أسلمت ودخلت فى دين الله أفواجاً.

وأمكن لجيش الإسلام أن يرتفع عدده من ٣١٣ فى غزوة بدر إلى ثلاثين ألفاً فى غزوة تبوك ، وبينما كان عدد الخيل فى الأولى اثنين ارتفع إلى عشرة آلاف فى تبوك، وتنوعت أسلحته فضمت إلى المشاة والفرسان استخدام المنجنيق والدبابات في غزوات خيبر والطائف ، هذا إلى تنوع الأسلوب كحفر الخندق فى غزوة الأحزاب.

وبهذا التطور المستمر لأساليب الحرب مع الاعتماد على قاعدة اقتصادية واجتماعية تستمد من إيمانها ومن إدراكها السليم بطبيعة الصراع استطاعت قاعدة المدينة تحت قيادة الرسول ﷺ، وبالتعاون الوثيق بين المسلمين وبتأكيد مبدأ الشورى استطاعت قاعدة المدينة أن تصبح مركز الثقل فى الحياة العربية وأن تؤكد الوجود الإسلامى على المستوى العالمي.

وبمثل هذه الجهود البناءة يستطيع الإسلام أن يضع عن نفسه الأغلال التى قيده بها الاستعمار بعد يقظته الأولى . .

وأننا لنحس بموجة من الوعي – وإن كانت تصادفها بعض العقبات الداخلية والخارجية فى أرض الإسلام فإنها آخذة فى الارتفاع والتقدم . وفى حديث اليوم سأقصر القول على نماذج من الجهود الإيجابية تتنوع مظاهرها وتصب فى نفس الوقت – فى تيار العمل المنتج وتنتشر هذه النماذج على جبهة إسلامية عريضة تمتد بين المحيطين الأطلسى والهادى .

– هناك الجهود الجبارة التى تبذلها الجزائر فى تعريب الحياة ، هناك بعد مائة وثلاثين عاماً من كفاح متصل بين الاستعمار الفرنسى والشخصية الجزائرية العربية الإسلامية .

– وفى السعودية مشروع توسيع الحرمين المكى والمدنى وتوفير مياه الشرب للحجاج فى مكة ومنى وعرفات مع تعبيد الطرق لتيسير النقل .

– وفى كثير من بلادنا العربية مظاهر متعددة لتطور الحياة . . فكما أن الرسول ﷺ آخى بين المهاجرين و الأنصار ليجعل من المجتمع الإسلامى سبيكة متماسكة ، تحاول مجتمعاتنا تذويب الفوارق بين الطبقات على أساس سلمى مع تجريد الطبقات التى كانت مسيطرة على مقدراتنا من أسلحتها التقليدية : اقطاع الأرض والسيطرة على الحكم ورأس المال والاستعانة بالقوى الاستعمارية ورد الأموال إلى القاعدة الشعبية صاحبة الحق الأول فى ثورة الأمة . ورحم الله عمر بن الخطاب حين قال : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء ووزعتها على الفقراء » .

كان عندنا مجتمع النصف فى المائة الذين يتمتعون بنصف ثروات الأمة بينما ٩٩,٥ ٪ من أبناء الأمة يتقاسمون فى غير عدل النصف الثانى ، ولم يكن هذا الظلم الاجتماعى ليسمح أو يرضى بتقدم حقيقى تسعد به الملايين من أبناء أمتنا .

ونحن أبناء الفلاحين والعمال الذين شققنا طريقنا بعناد وإصرار فى مجتمع ما قبل الثورة ، من أشد الناس إحساساً بما كنا فيه وما صرنا إليه . . كان العلم سلعة تباع وتشترى . كان العدل أيضاً سلعة لمن يملك نفقات الدفاع عن نفسه، كانت الصحة سلعة يملك أسبابها القادرون . . . أما الانتاج فكان مقتصراً على الزراعة وعلى زراعة غلة رئيسية بالذات هى القطن يتحكم الاستعمار فى مساحتها وكمياتها وأثمانها ويسيطر بهذا على مقدراتنا داخلياً وخارجياً، وكان الاستعمار جاثماً فى وطننا بقواته المادية والمعنوية .

واستطاعت جهودنا الدائبة أن تخرج الاستعمار من أرضنا مرتين فى عام واحد هو عام ١٩٥٦ ، ومع صمود الشعب المصرى وبتعاون الشعوب العربية وبتأييد الرأى العام العالمى استطاعت مصر أن تستعيد قناة السويس وأن تثبت كفاءة الإنسان العربى فى إدارتها و النهوض بها .

وامتدت يد التطوير إلى الأزهر الشريف محافظة فى نفس الوقت على كلياته العربية ليستطيع أن يساهم بوعى وقدرة وإيمان على القيام بمهمته التاريخية كأكبر وأعرق جامعة إسلامية تخدم الشعوب الإسلامية جميعاً .

هذا ما تقوم به بلادنا بلا مَنّ على أحد ، وإنما هى نعمة الله تعالى أن يجتمع فى رحاب الأزهر أبناء أكثر من سبعين شعباً .

ولم تكن بلادنا لتستطيع الصمود فى معركة التصنيع والتطوير الاقتصادى إلا بالسير نحو الكفاية والعدل فى المجتمع .

وفى مثل هذا التطوير تزكو القيم الدينية والأخلاقية الكريمة من الإخلاص والإيجابية والإيثار والعمل الدائب من أجل المجتمع ، وتذوى أخلاق النفاق والملق والرغبة فى الكسب الحرام ، وتتأكد فى النفوس الرقابة الإلهية والرقابة الاجتماعية ويتعاونان معاً على مقاومة الانحراف والاندفاع والتعويق فتتناسق خطوات المجتمع فى مسيرته المباركة إلى الهدف الكبير.



الفصل الخامس

دور اليهـود
فى العدوان على قاعدة الإسلام فى المدينة[1]

---

(١) نشرت بمجلة المجلة ، العدد ٢٧ ، يوليو، ١٩٦٧ .



يمتد المجال الجغرافى للصراع الحربي بين اليهود وقاعدة الإسلام فى المدينة نحو ثلاثمائة وخمسين كيلوا مترا فيما بين المدينة جنوبا وتيماء شمالا على محور الواحات الذى ينتهى إلى أرض الشام . وتتوفر في هذا المحور موارد من مياه السهول والعيون والآبار يستطيع بها السكان إقامة حياة مستقرة تعتمد على الزراعة والتجارة وبعض الصناعات كالحدادة والصياغة .

أما المجال الجغرافى للتآمر اليهودى فشمل دائرة أوسع تمتد إلى مكة جنوبا وإلى قلب نجد شرقا وإلى أطراف الشام شمالا وإلى ساحل البحر الأحمر غربا . . أى أنها تشمل معظم النصف الشمالى من الجزيرة العربية .

ويستغرق المدى الزمنى للصراع ست سنوات من الثانية إلى السابعة للهجرة . ويتفاعل فى هذه الفترة – تفاعلا قويا مع الجبهات الداخلية والخارجية التى انتصر عليها الإسلام دفاعا عن قاعدته ووجوده .

وهذه السنوات الست يمكن تقسيمها إلى مرحلتين :

١– المرحلة الأولى : من السنة الثانية إلى الخامسة وفيها دار الصراع فوق أرض المدينة وفى ضواحيها القريبة فى الجنوب الشرقى .

٢–المرحلة الثانية : فى السنة السابعة واستطاع فيها الإسلام أن يقوم بتصفية سريعة وحاسمة لنقط المقاومة فى الجبهة الشمالية : خيبر – وكانت أعتى هذه النقط – ومن ورائها سقطت حصون فدك ووادى القرى وتيماء .

قاعدة الإسلام

ولنبدأ بعرض الملامح الجغرافية – طبيعية وبشرية – لقاعدة الإسلام فى المدينة حتى نستطيع أن نتعرف على أسباب الصراع بينها وبين اليهود .

وتبعد المدينة عن ساحل البحر الأحمر نحو مائة وستين كيلو مترا ، وعن مكة – فى خط مستقيم نحو ثلاثمائة وخمسين كيلو مترا . وتشغل جزءا منخفضا من سهل مرتفع . ومستواها نحو سبعمائة مترا فوق سطح البحر . وتحيط بها التلال – أو الجبال كما تسميها كتب السيرة – وانحدارها العام من الشرق والجنوب نحو الشمال الغربى .

وترتفع حرة واقم إلى شرق المدينة ، وحرة الوبرة إلى غربها . وتطلق العرب لفظ الحرة واللابة على التكوينات البركانية . وإلى الحرتين أو– اللابتين – يشير الحديث الشريف « اللهم إنى حرمت مابين لابتيها كما حرم إبراهيم خليلك »(أى كما حرم مكة)[1].

وإلى الجنوب جبل عير وإلى الشمال جبل أحد ومن ورائه جبل ثور . وإليهما يشير الحديث الشريف « المدينة حرام ما بين عير وثور » .

ومن حرة واقم الشرقية ينحدر وادى مذينيب وكانت عليه مساكن يهود بنى النضير ، ووادى مهزور وكانت عليه مساكن يهود بنى قريظة .

ويلتقى الواديان باسم وادى بطحان ، الذى يلتقى بوادى رانوناء منحدرا من جبل عير . وتتجه هذه الأودية نحو الشمال الغربى ويلتقى بها وادى قناة منحدرا من الشرق ، وتتجمع هذه الأودية فى وادى العقيق الذى يخترق حرة الوبرة مقبلا

(١) انظر في أحاديث المدينة ، مادة مدينة يثرب ، في معجم البلدان ليلقوت ٥ : ٨٢ – ٨٨ ط . بيروت .

من الجنوب ويتابع جريانه شمالا إلى ما وراء المدينة .

وإذا كانت مكة قد تمتعت من أقدم العصور بأنها حرم الله وفيها بيته ، فإن المدينة لم تنل هذه الحرمة إلا بعد مقام الرسول ﷺ فيها واتخاذها قاعدة للإسلام ، وهى حرمة لم يكن يدين بها وقتئذ إلا المسلمين ، فى حين كان العرب جميعا يدينون بحرمة مكة . من أجل ذلك كان على المدينة قبل الإسلام وفى مرحلة تأسيس القاعدة الإسلامية أن تحمى نفسها بنفسها ، وانعكس هذا على تخطيطها العام ونظام مبانيها .

والعامل الرئيسى الذى تحكم فى توزيع سكان المدينة هو موارد المياه . وترتبط هذه الموارد – أكثر ما ترتبط – بتوزيع الأودية وفى نظامها الشجرى الذى يتجمع فى وادى العقيق يسكن أهل يثرب ضفاف الأودية وينتشرون حيث يستطيعون جر مياهها . ومن هنا تبدو ميزات عوالى المدينة وأجزائها المرتفعة :

١– فعندها الفرص الأولى فى السقيا .

٢– وعندها امكانيات أوسع فى الزراعة .

٣– ويستطيعون الدفاع عن أنفسهم ضد أية غارة ، فمواقعهم هى الحاكمة فى المدينة .

ولم تكن كل عوالى المدينة خاصة لليهود، كما أن اليهود لم يكونوا مركزين فيها ، وإنما كانت لهم ثلاثة مواضع رئيسية :

أ– فى قلب المدينة : حيث يهود بني قينقاع يمارسون التجارة والصناعة وبخاصة الصياغة .

ب– فى الجنوب الشرقى : حيث عاش يهود بني النضير على وادى مذينيب، ويهود بني قريظة على وادي مهزور .

ج- أما الأوس والخزرج فكانوا ينتشرون فى عالية المدينة وسافلتها .

وكان سكان الأحياء يحمون أنفسهم ببناء الحصون والدور الحجرية القوية (الآطام) يجمعون فيها المثونة والسلاح ويتحرون - ما استطاعوا - أن يتوفر فيها مورد ماء داخلى يعتمد عليه المحاصرون ، فإذا ما أحس القوم خطرا سارعوا من حقولهم وأسواقهم إلى الحصون واعتصموا بها ، ودافعوا عن أنفسهم الإغارة الخارجية أو الصراع الداخلى .

وتستطيع المدينة بهذا أن تكون فى ساعات العسرة والتماسك الداخلى حصنا كبيرا يدافع عن نفسه خطرا خارجيا ، ومن الممكن - فى حالات الصراع الداخلى - أن يتفكك الكيان الكبير إلى مجموعة من الكيانات الصغيرة المتصارعة .. من الممكن وفى حالات أخرى - إذا ما تخلى بعض أصحاب الحصون الحاكمة - وبخاصة فى العالية - عن ولائهم للمدينة ، وأن يصبحوا مصدر خطر كبير يهدد سلامتها ويفتح فيها أخطر الثغرات : وهذا ما حاوله يهود بنى قريظة فى غزوة الخندق .

التكوين الاجتماعى

ويرتبط التكوين الاجتماعى للمدينة بأحداث تتسع دائرتها إلى ما وراء الجزيرة العربية نفسها، فمن قديم سكنتها قبائل عربية من العماليق ، ثم لما أفسد اليهود فى فلسطين بطش حكامها بهم خاصة من الروم . فخرج نفر من اليهود لاجئين إلى القرى العربية على المحور الممتد من الشام إلى اليمن .

وتمر السنون ويستطيعون الاستئثار أو السيطرة على أكثر من واحة : المدينة، وخيبر ، وفدك ، ووادى القرى ، وتيماء . وكلها فى النصف الشمالى من المحور، وإن وصلت جاليات منهم إلى ما وراء ذلك جنوبا .

وإذا كان الحكم الرومانى قد أدى إلى هذه الازاحات السكانية نحو الجنوب، فقد كان له تأثير آخر على الجنوب الغربى .

فقد حاول الرومان واليونان السيطرة على تجارة البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وهى التجارة التى يقوم سكان الجنوب الغربى بنصيب كبير فيها ، واستطاعوا بها وبالزراعة أن يقيموا حضارات شامخة فى أرضهم .

وفى هذا الصراع فقد سكان اليمن والجنوب الغربى السيطرة على البحار، وحرمهم اليونان والرومان من مورد كبير كانت له مساهمته الفعالة فى بنائهم الحضارى ، وانعكس هذا الضغط الاقتصادى على مشروعاتهم الزراعية الكبرى وبخاصة السدود الكثيرة التى كانوا ينشئونها لحجز المياه ، وعندما قلت صيانتها أخذت تتصدع . وأدى هذا بدوره إلى قلة الانتاج الزراعى . ومع التدهور البحرى والزراعى أخذت حضارات اليمن تدخل فى ليل حتى جاء فجر الإسلام(١) .

ومع تدهور الحضارات الجنوبية – وإن أرجعه بعض المؤرخين إلى عوامل مناخية ، وليس هناك علميا ما يمنع من تأثير هذه العوامل جميعا – حدثت هجرات واسعة من الجنوب إلى خارج الجزيرة العربية وإلى أجزائها الوسطى والشمالية، والذى يهمنا منها وفود الأوس والخزرج إلى المدينة وسكناهم فيها .

يأتى الأوس والخزرج – من عرب الجنوب – إلى يثرب ، فينسى اليهود أن هذه الأرض قد وسعتهم من قبل عندما فروا من بطش وقع بهم بعد إفساد فى الأرض – كما ينص القرآن الكريم – كما يقول ياقوت – إلى الأرزاق والأعراض .

---

(١) تراجع خلاصة هذه الآراء في البحث الآتي :

Huzayyin.s.,1956 . changes of climate and human adjustment in the sehara arabian belt ; with special refrence to africia . pp 304- 323 in :

man,s role in changing the face of the earth, edited by w.l Thomas tr, univ . of chicago press.

وتحدث فى تلك الدورة من دورات الصراع ظاهرة كثيرا ما نلقاها فى تاريخنا العربى الطويل : يتلفت عرب الأوس والخزرج حولهم ، ويجمعون صفوفهم ويستعينون بإخوانهم الغساسنة – على أطراف الشام – وهم مثلهم من عرب الجنوب المهاجرين – وكانت لهم فرص أوسع فى الاستقرار والازدهار الحضارى . ويعينهم الغساسنة بجيش يستطيع أن ينتقم من سوء اليهود ويقضى على زعمائهم ورؤوس الشر فيهم . وصار الأوس والخزرج من يومئذ أعز أهل المدينة . واتخذوا القصور والأموال والآطام وقدم الرسول ﷺ المدينة وهم كذلك[1].

فالصراع بين اليهود والعرب في المدينة سابق للإسلام ، ولم يكن الإسلام سببا له، ولم يستطع عرب المدينة وحدهم أن يلقوا هذا الشر ، وكان من العون العربى ما أعانهم على استعادة حق عربى أصيل.

فمشكلة اليهود إذا كانت نابعة منهم ، يحملون بذورها حيث يقيمون : حاربهم عرب المدينة فى جاهليتهم كما حاربوهم بعد إسلامهم وإذا كانت قاعدة الإسلام فى المدينة قد ورثت هذا الصراع ، فقد كان ذلك من أجل استعادة حق، والقضاء على أوكارالفتنة فى الجزيرة العربية . أما الدين من حيث هو دين ، فالذى يحكم المسلمين فيه قول الله تعالى : ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

ومع تعرض الأوس والخزرج لخطر اليهود المشترك ، فقد كانت بينهم حروب وثارات فى الجاهلية ، واتخذ كل منهم لنفسه حلفاء من اليهود ، واستطاع اليهود بذلك أن يحفظوا جانبا من قوتهم فى المدينة ، واطمأن كل فريق منهم إلى محالفته حيا من عرب المدينة :

---

(١) معجم البلدان ،٥ : ٨٥

الخزرج يحالفون بني قينقاع وبني النضير ، والأوس يحالفون بني قريظة ، وأصبح كل فريق من الأوس والخزرج – قبل الإسلام – حريصًا على حلفائه من اليهود . واليهود من – ناحيتهم – يحرصون على ألا يجتمع الأوس والخزرج عليهم، وكان لهم جهدهم قبل الإسلام وبعده فى تفكيك وحدتهم .

هذه هى الملامح الرئيسية للمدينة – طبيعية وبشرية – عندما اتخذها الرسول ﷺ قاعدة للإسلام . وهنا – فى المدينة – كان المجال الأول للصراع .

المرحلة الأولى للصراع في المدينة

بنو قينقاع

كانت هناك مشكلات تتعلق بالصف الإسلامى لابد من حسمها ، أو السير إلى ذلك حتى يستطيع هذا الصف مقابلة أعدائه .

لابد أولاً من توثيق الصلة بين الأوس والخزرج ليكونوا جميعا « أنصار الله »، ولابد من توثيق الصلة بين الأنصار وبين المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم مهاجرين إلى الله ورسوله.

ولابد من التوحيد الفكرى للمسلمين – من توحيد حركى تستطيع به قاعدة الإسلام أن تدافع عن نفسها . . ولكن ضد من هذه المرحلة ؟

الخطر القرشى خطر محقق، والخطر اليهودى لا يزال محتملاً ؛ لأنهم لم يبدوا عدوانا ظاهرا أول الأمر . وهم فى نفس الوقت حلف للأوس والخزرج . فليعقد الرسول ﷺ مع اليهود حلفًا جديدًا – هو متابعة جزئية لوضع قائم – ولكن باسم الإسلام . وفى هذا كسب جديد ، فإن الحلف الجديد سيجب الأحلاف الجاهلية ، ويجعل التعامل مباشرا بين الرسول ﷺ كقائد للمسلمين بيده السلطة العليا فى

المدينة «وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله و إن اليهود يقفون مع المؤمنين ما داموا محاربين . . و أن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين . . لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . مواليهم و أنفسهم . إلا من ظلم أو أثم . فإنه لا يوتغ(أى يهدى) إلا نفسه وأهل بيته . . وأن بطانة المؤمنين كأنفسهم . وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد . وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم »(١) .

وبهذا أعطى الحلف الفرصة لليهود للتعايش والتعاون مع المسلمين على أساس من السماحة الدينية ، لكن أهل المدينة على اختلاف أديانهم مع مشاركة فى دفع أى أذى عن المدينة ، وتحديد واضح لعداوة قريش ومن نصرها . وتبدأ الحركات العسكرية فى المدينة منذ العام الأول للهجرة : ثمان سراية وغزوات هى مجال جغرافي ممتد إلى ساحل البحر الأحمر حتى الجنوب وراء مكة على طريق الطائف ، و تهديد لتجارة قريش الشمالية والجنوبية .

ووقعت غزوة بدر فى رمضان من السنة الثانية للهجرة ، و ينتصر فيها المسلمون على قلة عددهم و عدتهم على ثلاثة أضعاف قوتهم المادية . و يعود الرسول إلى المدينة بعد النصر المبين .

هل يفرح اليهود بالانتصار وبالدفاع عن المدينة وبارتفاع شأنها ؟ ! هذا كعب بن الأشرف اليهودى ، وقد علم بمقتل سادات قريش فى بدر .يقول : « والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء لبطن الأرض خير من ظهرها » . و يقصد مكة بعد أن تيقن من الخبر يحرض على رسول الله وينشد الأشعار ، ويبكى قتلى قريش ، ثم يعود الباكى الحزين إلى المدينة ليتغزل بنساء المسلمين ! ! »(٢) . (شكل ٢) .

---

(١) سيرة ابن هشام ، ٢ : ١٤٧ –١٥٠ ط الحلبي، ١٩٣٦، القاهرة.

(٢) سيرة ابن هشام ، ٣ : ٥٧ –٥٨ .

ولم يستطع اليهود إخفاء غيظهم من نصر رسول الله ﷺ ، فيجاهرون بالعداء ، ويشككون المسلمين فى دينهم ، وينقلون أخبار المسلمين إلى المشركين ، ويفتحون بيوتهم لإيواء أعداء الإسلام ويبينون لهم عورات المدينة . كل هذا بعد العهد الذى قطعوه على أنفسهم مع المسلمين بأن بينهم النصر على من دهم يثرب!!

وكان من أخطر الجيوب جيب بنى قينقاع ، فهم فى قلب المدينة يخالطون المسلمين ، ويعرفون الكثير من أمرهم وأسرارهم وينقلونها إلى قريش .

وتتجمع هذه الأخبار كلها عند الرسول ويتابع اليهود حملتهم مستهزئين بالإسلام والمسلمين . ويصل الأمر إلى تعرض للمسلمات وتطاول يثور له مسلم فى سوق بنى قينقاع، فيقتل اليهودى الآثم فى سوقه ووسط قومه فيعدو عليه اليهود قتلا ، وينسحبون إلى دورهم معتمدين على سلاحهم وحلفهم الجاهلى .ويأتى الرسول ﷺ إليهم يدعوهم إلى كف الأذى واحترام الحلف فيستخفون به :

«لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة . إنا والله لئن حاربنا لتعلمن أنا نحن الناس! » .

وماذا يستطيع الرسول ﷺ فى هذا الموقف إلا أن يقبل التحدى ، وأن يحاصر قوما استعدوا لهذا الموقف ، ويساكنونه قلب المدينة؟ .

ويحاصر الرسول ﷺ دور بنى قينقاع خمسة عشر يوما حتى يضطر اليهود إلى التسليم والرضى بما يصنعه بهم رسول الله ﷺ .

ويتدخل رأس المنافقين - عبد الله بن أبى ابن سلول الخزرجى - طالبا من الرسول ﷺ أن يحسن إلى مواليه من يهود بنى قينقاع : أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع .

فيأمر الرسول ﷺ بإخراجهم من المدينة على أن يتركوا وراءهم السلاح وأدوات الذهب[١] حتى بلغوا وادى القرى . وبقوا هناك زمنا ثم ساروا إلى أذرعات على حدود الشام ولم يبقوا فيها طويلا حتى هلك أكثرهم ، وهكذا تخلص الرسول ﷺ من القوة المعادية التى كانت تسكن قلب المدينة .

فهناك ارتباط واضح بين نصر المسلمين ببدر وردود الفعل التى حدثت من اليهود فى المدينة وبخاصة ضد يهود بنى قينقاع على غير ما يقضى به العهد بينهم .

بنو النضير

وبعد تطهير قلب المدينة بقي قومان : بنو النضير على وادى مذينيب ، وبنو قريظة على وادى مهزور فى ضواحى المدينة الجنوبية الشرقية .

ويفرغ الرسول ﷺ مرة أخرى إلى حرب قريش ، وتنتهز قريش غرة فترسل قوة بقيادة أبو سفيان من مائتى فارس ، وينزل أبوسفيان على بنى النضير ، ويعرف من سلّام بن مشكم – من سادتهم – أخبار المسلمين ، ويتدارس معه أجدى الطرق للإيقاع بهم ، و يوضح له سلّام أفضل الثغرات ، فيهجم برجاله على وادى العريض، ويحرقون ويقتلون فى عجلة ويفرون هاربين . ويجد المسلمون فى طلبهم، ويسرع كفار قريش إلى مكة ملقين وراءهم ما معهم من أرزاق أكثرها من السويق[٢] .

ويبذل الرسول ﷺ أكثر جهده فى هذه المرحلة فى تهديد طرق تجارة قريش إلى الشام . ويؤثر هذا تأثيراً سيئاً على اقتصاديات مكة ، ويحاول القرشيون التحول إلى

---

(١) يقول عنهم المقريزي في إمتاع الأسماع ، تحقيق محمود شاكر ، ١ : ١٠٥ وكانوا أشجع يهود وأول من غدر من اليهود ووجدوا في منازلهم سلاحا كثيرا .

(٢) ابن هشام ٣ : ٤٧ – ٤٩ .

طريق العراق ، ويصيبهم المسلمون فى هذا الطريق أيضاً . وبهذا أقفلوا عليهم طريقى الشام والعراق ومن هذه الطرق كانت قريش تستمد أكبر طاقتها الاقتصادية والحربية .

وتضع قريش قوتها فى غزوة أحد . ويقف اليهود موقف التربص، وتنتهى المعركة بسبعين شهيداً من المسلمين ونصر أولى لقريش تترك بعده الميدان فيتبعها الرسول ﷺ رغم ما أصاب المسلمين ، فتنكص قريش عن لقاء الرسول ﷺ فى حمراء الأسد حيث بقى ثلاث ليال واسترد المسلمون كثيراً من مكانتهم التى اهتزت فى غزوة أحد .

لم تستطع قريش أن تثبت أمام المسلمين فى حرب سافرة ولا أن تلقى الرسول ﷺ وصحبه فى حمراء الأسد بعد أحد ، فهل يحاول هذا بنو النضير؟

هل يلجأ بنو النضير إلى الحيلة و الغدر ، وانتظار فرصة مواتية يقضون فيها على الرسول ﷺ نفسه، ويذهب إليهم الرسول ﷺ بعد حين ليستعين بهم فى دية قتيلين معاهدين قتلهما المسلمون خطأ . ويجلس مع نفر من أصحابه إلى جدار بيت ، ويرى الرسول ﷺ ببصيرته النافذة كيف يقوم بعض القوم إلى البعض يسرون القول ثم يلمح أحدهم يتسلل إلى البيت الذى يجلس الرسول ﷺ إلى جداره ، فيستأذن أصحابه فى هدوء ، ويقوم وحده عائداً إلى المدينة ، وسرعان ما تتضح خيوط المؤامرة : حجر رحى كان القوم يدبرون إلقاءه على الرسول ﷺ، وهو جالس إلى الجدار ، ويرسل إليهم الرسول ﷺ من يقول لهم:

– إن رسول الله أرسلنى إليكم أن اخرجوا من بلادى ، لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم ما هممتم به من الغدر بي . لقد أجلتكم عشراً . فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه(١).

---

(١) ابن هشام : ٣ : ١٩٩– ٢١٣ ، وإمتاع الاسماع ١ : ١٧٨–١٧٩ .

و لنذكر ما كان – من قبل – من إيوائهم أبى سفيان فى غزوة السويق التى أ.ار فيها على المدينة غدراً على أساس من معلومات قدمها بنو النضير.

وكان بنو النضير حلفاء الخزرج ، ويرسل إليهم عبدالله بن أبى سلول : « اثبتوا ونحن ننصركم على محمد وصحبه » . فعاد حلف الجاهلية يرفع رأسه . ورآها بنو النضير فرصة : ماذا لو انتصروا هم ومنافقو المدينة وعادت إليهم أوضاعهم كما كانت فى الجاهلية ؟

ويستقر رأيهم على القتال ويقيمون المتاريس فى الطرقات و يحتمون بالحصون ويكدسون أرزاقاً تكفيهم سنة كاملة من الحصار، والماء متيسر فى آبار الحصون، هى حرب مدن لا حرب حصون . غيَّر فيها بنو النضير الأسلوب الذى اتبعه يهود بنى قينقاع ، سواء فى محاولة القضاء على الرسول بالتآمر أو الاستيثاق من « التحالف » بينهم و بين المنافقين ، ثم اللجوء إلى إعداد أنفسهم لحرب طويلة فيها عدد من خطوط الدفاع المتوالية آخرها الحصون، واكتسبوا بهذا عمقاً فى الدفاع فلا تكون الحصون هى التى تتلقى الصدمة الأولى والأخيرة كما حدث مع بنى قينقاع . وفى ذلك كله استفادوا من طبيعة الأرض و التركيب الاجتماعى للسكان قبل الإسلام.

وتدور الحرب بين المسلمين وبين بنى النضير : دار بعد دار ، و شارعاً بعد شارع . واليهود يهدمون ما يضطرون إلى إخلائه « يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين » . عشرين ليلة من الصراع، وفى اليهود ثقة فيما عندهم من عتاد ، وما يستطيع حلفاؤهم من المنافقين أن يلقوه فى المعركة إذا مال ميزانها ضد مصلحتهم.

ويأمر الرسول ﷺ بإحراق نخيل اليهود ، ما داموا قد أدخلوا الأرض الزراعية فى

القتال ، وينتظر اليهود النصرة من المنافقين فلا يجدون إلا رجع الصدى . فيسألون الرسول ﷺ تأمين أموالهم ودمائهم وذراريهم .

ويوافق الرسول ﷺ على خروجهم ، ولكل ثلاثة منهم بعير عليه ما شاءوا ، ولا يستطيع حلفاؤهم من المنافقين أن يحركوا ساكناً ، وترك بنو النضير وراءهم سلاحاً وغلالاً وأرضاً عادت إلى المسلمين .

بنو قريظة

وكانت هذه هى القوة الباقية الوحيدة من قوى اليهود فى ضواحى المدينة بعد إجلاء بنى النضير، وشهد هؤلاء سرعة تحرك الرسول ﷺ للقضاء على تجمعات أعدت لغزو المدينة على مدى يمتد من دومة الجندل – على الحدود بين الحجاز والشام – إلى المريسيع جنوباً قرب مكة، فوجدوا أنهم وحدهم أضعف من أن يواجهوا المسلمين فانتظروا فرصة : حليفاً قوياً يتعاونون معه إذا تأكدوا من النصر، وقام يهود بنى النضير بجهد كبير فى تجميع وتأليف قريش والقبائل العربية فى نجد لغزو شامل للمدينة .

وتأتى غزوة الخندق فى العام الخامس للهجرة . قوات المسلمين فيها ثلاثة آلاف معتصمة بالمدينة وراء خندق حفرته فى الجزء المنخفض الشمالى ، بينما العوالى حيث المزارع الكثيفة والحصون وديار بنى قريظة متروكة لقوات حراسة خفيفة متحركة(١)، وقوات المشركين عشرة آلاف من قريش وبنى سليم وأسد وفزارة أشجع وغطفان – هذا غير قوة يهود بنى قريظة التى ستبرز فى مرحلة متأخرة من الحصار .

---

(١) انظر في تحقيق مكان الخندق : محمود شيت خطاب ، الرسول القائد ، ص٢١٧، دار القلم ، القاهرة، ١٩٦٤ .

ومع اشتداد الحصار و محاولات اختراق الخندق يبدو خطر بني قريظة :

١- محاولة تسلل فى أثناء الحصار - والمسلمون يواجهون العدو من الشمال - يستهدف بها اليهود جمع معلومات عن قلب المدينة حيث الدور وبها النساء والصبيان ، و تحس صفيه بنت عبد المطلب عمة الرسول بذلك - فلا تضيع وقتاً فى طلب نجدة ، وإنما تباغت الجاسوس اليهودى فتصرعه فلا يعود إلى قومه . فيظنون قلب المدينة فى حراسة قوية.

٢ - تحالف بين قريش وبنى قريظة على أن يفتح لهم بنو قريظة ثغرة على الجبهة الجنوبية حيث حصونهم ، فيتدفقون منها إلى المدينة . فيفاجأ المسلمون بعدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم . ولا يفسد هذا التحالف إلا نعيم بن مسعود الطفيلى، وقد أسلم وجاء الرسول ﷺ وأعلمه بالأمر ، فأمره الرسول ﷺ أن يكتم أمره ، وأن يبذل جهده فى تخذيل القوم ، فينصح اليهود بأن يطلبوا من قريش رهائن قبل الالتحام المشترك ضد المسلمين ، وينصح قريشاً بأن اليهود سيطلبون منهم رهائن يقدمونها إلى محمد ليعفو عنهم ، ويكتم كل من الطرفين مصدر معلوماته بتوجيه من نعيم ، فلما التقيا ظهر الشك ولم يتفقا . وآثرت قريش بعد الحصار المضنى فى برد الشتاء وقلة المئونة وثورة الشك فى النفوس أن تنسحب من الموقع . وثارت رياح الشتاء العنيفة تطفئ نيران المعسكر وتقلع خيامه ، ومع رياح الشتاء ورياح الشك يأتى صباح ينظر فيه المسلمون إلى معسكر عدوهم فيجدونه خالياً(١).

ولا يطوى الرسول ﷺ أعلام المعركة ، وإنما يوجه أصحابه - رغم ما عانوه من جهد - إلى الاسراع إلى حصار حصون بنى قريظة فى الجنوب الشرقى فى نفس

---

(١) تفاصيل المؤامرة ودور نعيم بن مسعود الغطفاني مذكورة في كتب التفسير والسيرة : انظر ابن هشام ٣ : ٢٤٠-٢٤١ .

اليوم ، وكان الإسراع ضرورة حربية ليضع المسلمون أيديهم على آبار خارج الحصون يستقون منها ، ولو تأخروا لاستطاع اليهود تدميرها وحرمان المسلمين من مورد مائى فى أرض المعركة.

ويعتصم بنو قريظة – فى حصونهم خمساً وعشرين ليلة بعد أن فشلوا فى أن يهزموا المسلمين بدماء العرب !!، ولم يلجأوا إلى أسلوب بنى النضير فى حرب الطرقات والدور والمتاريس . . وإنما غلبهم الذعر : لا يقبلون سلاماً ولا يخرجون لقتال ، فلم يعد أمامهم سوى المصير المحتوم – مصير الخائن فى الحرب.

ويعرضون الجلاء واللحاق بإخوانهم الذين سبقوهم إلى الشمال ، فيأبى الرسول إلا التسليم دون قيد ولا شرط.

وعادوا يطلبون التحكيم على أن يتولاه سعد بن معاذ زعيم الأوس حليفهم قبل الإسلام ، وظنوا أمرهم ينتهى كأمر بنى النضير وبنى قينقاع ، ويرضى الرسول ﷺ ، وبعد أن يأخذ سعد على الطرفين العهد والميثاق أن يقبلوا حكمه ، يحكم – وهم الذين اختاروه – بقتل المقاتلة وأسر الباقين. . .وماذا كانت بنو قريظة ستفعل إذا انتصرت غير ذلك؟

لقد ظنوا سعد بن معاذ كعبد الله بن أبي سلول رأس المنافقين ، ولكنه كان رجلاً طهر الله نفسه من أمر الجاهلية . إذا فهم سعد الكأس التى كانت تنتظره وقومه وأخوانه فى العقيدة لو انتصرت الأحزاب واليهود على قاعدة الإسلام فى المدينة . وسجل الله هذا فى كتابه : ﴿ **وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ** (وهم يهود بنى قريظة) **مِن صَيَاصِيهِمْ** (حصونهم) **وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا** ﴾ (الأحزاب : ٢٦، ٢٧).

ويوزع الرسول ﷺ أرض بنى قريظة على المسلمين، و تعود أرض المدينة ومياهها إلى بناء المجتمع الجديد من مهاجرين وأنصار تظلهم العقيدة والحب والإيثار.

كان حصاد هذه الرحلة الأولى تطهير قاعدة الإسلام فى المدينة من الخطر اليهودى الذى كان مسيطراً على جزء من منطقة القلب ويخالط المسلمين ويعلم أخبارهم وينقلها إلى أعدائهم ، ويدلهم على عوراتها ، كما كان يسيطر على نقط حاكمة فى الجنوب الشرقى لها ركائزها القوية من الأرض الخصبة وموارد المياه معتمداً على حصون قوية و سلاح..

وقد وضح من العرض كيف أن اليهود فى المدينة كانوا كل مرة بادئين بالعدوان، ناكثين بالعهد ، متآمرين مع العدو ، يدفعونه ويتقدمون إلى المعركة متى ظنوا النصر أو وجدوا الفرصة ، وأن المعارك الثلاث الكبرى معهم كانت مرتبطة زمنياً وموضوعياً بمعارك ثلاث كبرى مع قريش : بنو قينقاع بعد «بدر» ، وبنو النضير بعد «أحد» بفارق زمنى، وبنو قريظة – مع «الأحزاب» وبعدها، وأن التصادم بدأ أولاً فى قلب المدينة ثم انتقل إلى أطرافها..

المرحلة الثانية

هؤلاء الذين خرجوا من يهود المدينة أين تجمعوا ؟

كانت رحلتهم شمالاً . عاش بعضهم فى «خيبر»، ووادى القرى، وفدك ، وتيماء ، بينما تابع البعض الآخر رحلته شمالاً إلى أطراف الشام.

وكانت تجربة غزوة الأحزاب أو الخندق عنيفة عميقة . ومع أنها نجحت نجاحاً كاملاً إلا أنها حددت أبعاد المعارك المقبلة : هناك جبهة جنوبية مركزها مكة حيث قريش . وجبهة شمالية مركزها خيبر حيث تجمعات اليهود.

عند هؤلاء جميعاً كانت غزوة الأحزاب جولة وراءها جولات . وتبدأ الجبهة الشمالية فى الحركة :

– محاولات لتعاون جديد مع غطفان وإغرائها بعدوان جديد على المدينة .

– محاولات غدر بوفد أرسله الرسول ﷺ إلى خيبر.

وكان من المنتظر إذا ما نجحت محاولات اليهود فى تجميع قبائل « نجد » أن تلقى قريش بقوتها فى مغامرة جديدة . فلا بد من الفصل بين الجبهتين ، ولكن كيف؟

يخرج الرسول ﷺ فى العام السادس لزيارة المسجد الحرام فى قوة يراها العرب . ويدعو العرب جميعاً إلى هذه الزيارة تعظيماً لبيت الله لا قتال عنده . وماذا تستطيع قريش أن تفعل :أتصده عن زيارة المسجد الحرام أم تقاتله فى الشهر الحرام؟

ووجدت قريش نفسها فى مأزق ، ولن نقف طويلاً عند صلح الحديبية الذى عقد بين الرسول ﷺ وقريش، فالذى يعنينا من شروطه فى موضوعنا أنه كان هدنة بين قريش والرسول مدتها عشر سنوات ؛ يدخل فيها فى عهد محمد ﷺ من أحب وفى عهد قريش من أحب ، وأن يرد الرسول ﷺ إلى قريش من يأتى إليه مسلماً بدون إذن وليه، ومن جاء قريشاً من أصحاب محمد ﷺ لم يردوه إليه.

فى المعاهدة اعترف بالمسلمين طرف مساو لقريش ، وفتح المجال أمام محالفات مع القبائل ، ولقد كتم الرسول ﷺ حتى عن أقرب المقربين إليه أهدافه البعيدة من الصلح ، ولكن سرعان ما ظهرت نتائجه.

قدرة ممتازة على ضبط النفس ظهرت من الصحابة حين قبلوا العودة من عامهم هذا دون دخول المسجد الحرام على أن يعودوا إليه فى عام قابل. ولتوجه قريش الآن

أنظارها إلى تجارتها تحاول إعادة بناء نفسها اقتصادياً. .فإذا ما قويت استطاعت أن تفعل ما تشاء. .وتأتيها المشكلات من حيث لا تحتسب؛ الذين خرجوا إلى الرسول ﷺ بدون إذن أوليائهم أعادهم الرسول ﷺ على أساس من نصوص المعاهدة ، ولكن هؤلاء لم يقبلوا العودة إلى قومهم والرسول ﷺ لا يقبلهم فى مجتمعه فإذا بهم يتغلبون على حراسهم فى طريق العودة من المدينة إلى مكة ، ويكونون قوات ضاربة خفيفة . . .قوات فدائية تعمل لحسابها وتحصل على رزقها بسلاحها ، وماذا تستطيع أن تفعل غير أن تقطع على قريش طرق تجارتها ، وتضيق قريش بشروط ظنتها نصراً وتناشد الرسول ﷺ الرحم أن يسقط هذا الشرط من المعاهدة.

ويقف ، يهود الجبهة الشمالية وحدهم . ويباغت الرسول ﷺ حلفائهم فى نجد، فإذا بهم ينطوون على أنفسهم مدافعين عن ديارهم .

وبقى اليهود وحدهم لا قريش ولا قبائل « نجد » ويطلع صباح على خيبر لتجد جيوش المسلمين أمام الحصون .

ولم يكن الاستيلاء على حصون خيبر بالأمر اليسير[1] ، فهى تقع فى منطقة صخرية ، وتربتها بركانية خصبة غنية بالنخيل والحبوب الغذائية وكانت أقوى النقط اليهودية الشمالية، وأهلها أعرف اليهود بشئون الحرب، وعندهم آلات تخريب ودفاع عن الحصون ، وتتألف دفاعاتها من ثلاث مجموعات من الحصون :

١– منطقة النطاة : فى وادى السرير ، وفيها حصون النطاة ، وناعم ، والصعب بن معاذ ، والزبير .

---

(١) في وصف حصون خيبر وملامح المنطقة الطبيعية انظر:

– محمود الدرة، تاريخ العرب العسكري ، ص١٦٢ –١٦٣ ط دار الكاتب العربي ، بيروت، ١٩٦٤ .

– عبد الله فلبي، أرض الأنبياء، ص ٣٥ –١٤٣ ، ترجمة عبدالله الدبراوي، ط الأهلية ، بيروت. . وفي هذه الصفحات يقدم المؤلف وصفا معاصرا لتلك المواطن من خيبر إلى تيماء، ويشير إلى ما استطاع الوصول إليه من الآثار القديمة فيها ، ويعتبر بحثه هذا متابعة لبحث روائي عن المنطقة .

٢- منطقة الشق : وهى على جبل شمران المشرف كذلك على وادى السرير، وفيها قلعة أبيّ ، وكانت مشيدة على قمة جبل.

٣- منطقة الكتيبة :وفيها حصنا الوطيح والسلالم ، وهما أقوى حصون خيبر، وحصن القموص.

وجمع اليهود الأبناء والأموال فى حصنى الوطيح والسلالم ، والذخائر فى حصن ناعم ، والقوات المحاربة فى حصن النطاة .

ويدور القتال فى العراء ، ثم يتراجع اليهود إلى الحصون . تركيز على حصن ناعم أمنع الحصون مع مشاغلة للحصون الأخرى، ويسقط حصن ناعم ومن بعده حصن القموص بعد قتال شديد ، ويتحولون إلى حصن الصعب بن معاذ حيث المئونة ، ثم حصن الزبير ، ويحاول المسلمون معرفة مصدر ماءه ، ويقطعون عنه الماء، و تتساقط الحصون . . وأخيراً يسقط حصنا الوطيح والسلالم فيقبل اليهود التسليم ويبقيهم الرسول ﷺ على الأرض وعليهم العمل ولهم نصف الغلة .

ويسرى الخبر بسقوط حصن خيبر ، فتقبل « فدك » نفس الشروط ، ومن ورائها حصون وادى القرى وتيماء. واستطاع الرسول ﷺ منحهم فرصة الحياة فى الواحات الشمالية ، إلا أن المؤامرات استمرت بعد موته ، ولم يجد الخليفة العادل عمر بن الخطاب إلا إتمام إجلائهم من الجزيرة العربية إلى أطراف الشام. .

ولكن هلى تمت القصة ؟. . . .أبداً. .لقد ظلت بصورة أو بأخرى. .

وتتبنى الحركة الصهيونية الحديثة هذا الشر ، و ينشئ الاستعمار فوق أرض فلسطين دولة مؤامرات تمزق الوطن العربى إلى قطاعين آسيوى وأفريقى، ويتخذها رأس جسر لعدوانه، ونحن نمر الآن بتجربتها تآمراً واستعداء وعدواناً ، وثغرة خطرة تنفذ منها قوات الاستعمار الجديد : أمريكية وبريطانية إلى أرضنا. .

وليس هناك من سبيل أمامنا إلا العمل..والعمل الدائب حتى تطهر أرضنا العربية بعودتها إلى أبنائها كما استقرت قاعدة الإسلام فى المدينة بالقضاء على الشر الدخيل.

وصفوة القول أن العرب والمسلمين لم يكونوا على طول تاريخهم – عادين ، وإنما كانوا – كما رأينا فى هذه الدراسة – يبدءون دائماً بالخير ويتحرون السلام ، فلا يلقون من أعدائهم إلا التآمر والخيانة ، فلم يعد أمامهم إلا أن يدفعوا عن أنفسهم شراً وأن يستعيدوا حقاً..



الفصل السادس

من أرض القرآن إلى عالم القرآن



لأرض القرآن حدود ومعالم ترتبط بهدف الدراسة المقصودة : وفيما سبق من الفصول ، رأينا حدوداً لأرض القصة القرآنية ، ثم حدودا لمنزل الوحى ومكانة مكة... أم القري ، وكيف أن الهجرة من مكة إلى المدينة كانت في مجال جغرافي واحد... على محور الواحات الممتد من اليمن إلى الشام ، وأن الرسول ﷺ دعا أصحابه إلى الهجرة إلى الحبشة – إلى حين – ولم يشارك بنفسه فيها، وعندما اتخذ من المدينة قاعدة للإسلام ، تعرضت لضغوط قريش ، ومن شايعها من قبائل الساحل ونجد ، واستطاعت القاعدة أن تثبت أمام العواصف لتوسع دائرة الإسلام إلى الجزير ة العربية . ثم زلزلت الأرض زلزالها في حروب الردة واستطاع الإيمان والتخطيط والعمل بعد رحيل الرسول ﷺ أن يعيد إليها استقرارها ، لينطلق الإسلام من أرض القرآن إلى عالم القرآن . والأرض كلها عالم القرآن ، والخطاب في كتاب الله موجه إلى الإنسان، كل إنسان على امتداد الزمان والمكان.

في القرآن يجد الإنسان ذاته وأسرته ومجتمعه وعالمه ، والكون الذي يعيش فيه. يجد البدء والحياة والمصير . يجد المناشط الإنسانية في تنوعها ، وحركة الإنسان الدائبة بين عوالم الأرض بما تحوى من صخور ، وما يجري فيها من ماء ـ وما ينبت عليها من نبات وما يسعى من حيوان ، ويجد عوالم السماء بنجومها وأفلاكها وأعماقها .. ويجد تطور التاريخ الإنسانى بما فيه من شعوب وقبائل واختلاف ألسنة وألوان ، وتدافع بين الناس ، وقيام سلطان ودمار سلطان ، وصراع بين الكفر والإيمان.

فعالم القرآن رحب فسيح مدخله إنسانى ، الخطاب فيه من رب الناس إلى الناس..وبهذا الشمول والتكامل الموضوعى والاستجابة المتجددة لحاجات الإنسان والحث على مزيد من العمل والإخاء والتعاون ، في إطار من العدل والإحسان ، وجدت آيات القرآن في القلوب والعقول أرضاً طيبة ، تحمل أمانته وتنشر رسالته.

مدخل إنســاني

ويبدو المدخل الإنسانى للقرآن في النظرات الثلاث الآتية:

١- كان أول ما أنزل الله من القرآن على النبى ﷺ قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ١-٥) . والخطاب للرسول عن الإنسان خلقه وأكرمه بالعلم .

٢- وفاتحة الكتاب جاءت قسمة بين الله والإنسان . يقول الرسول ﷺ فيما يرويه عن ربه: [قال الله عز وجل: «قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل . فإذا قال: «الحمد لله رب العالمين» قال الله: حمدنى عبدى . وإذا قال: «الرحمن الرحيم» قال الله: أثنى على عبدى فإذا قال: «مالك يوم الدين» قال الله: مجدنى عبدى ، وقال مرة: فوض إلي عبدى . فإذا قال: «إياك نعبد وإياك نستعين» قال: هذا بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل . فإذا قال: «إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين» قال الله: هذا لعبدى ولعبدى ما سأل] (رواه النسائي عن اسحق بن راهويه).

٣- وسورة البقرة - أطول سور القرآن ، ومن أوائل ما نزل في المدينة ، وأول ما نقرأ في كتاب الله بعد الفاتحة ، والتي يقول فيها المصطفى ﷺ ، مبينا فضلها «إن لكل شيء سنامًا ، وإن سنام القرآن البقرة . . .» (رواه الطبرانى عن سهل بن سعد) هذه السورة تبدأ بدءاً إنسانياً أيضاً: وهى تبين مواقف الناس من القرآن الكريم: المؤمنين والكافرين والمنافقين . يلى هذا دعوة الناس جميعاً إلى الإيمان بالله في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ٢١) ثم يذكر الله خلق السموات والأرض ، من حيث علاقتها بالإنسان

فيقول: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢٢) وتذكر الآيات خلق السماوات والأرض بعد جزءا الطاعة والمعصية ، وخلق الإنسان وإحيائه بعد الموت : يقول تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢٩) ، ويلى هذا مباشرة تفصيل في خلق الإنسان وخلافته في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة : ٣٠) .

مقارنة مع العهد القديم

ويختلف هذا عن المنهج التاريخى الذي نراه في العهد القديم : ففى مطلع الإصحاح الأول من سفر التكوين : « في البدء خلق الله السماوات والأرض . وكانت الأرض خربة وخالية ، وعلى وجه العمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه ، وقال الله ليكن نور فكان نور ... » وفى خواتيم الإصحاح جاء خلق الإنسان (تكوين ١ : ٢٧) .

أما **العهد الجديد** فتتخذ الأناجيل الأربعة فيه غرضا متوازيا ، وتبدأ جميعاً بقصة عيسى عليه السلام ، وتنتهى بها . وتأتى أعمال الرسل مبينة في جملتها جهودا لاحقة، أو موضحة لما أجملته الأناجيل، مع إشارات إلى قصص الأنبياء السابقين.

ويستند العهد الجديد إلى العهد القديم في قصة الخلق كما جاءت في سفر التكوين: « ففى الموعظة على الجبل خاطب المسيح عليه السلام الجموع قائلاً: لا تظنوا أنى جئت لانقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل »(متى :٥-١٧) .

وعالم القرآن رحب ممتد، يقول تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (الكهف: ١٠٩) ويقول: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمان: ٢٧).

ويصف الله علمنا فيقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٥)، ويربط القرآن ما جاء به من العلم بالعبرة فيه فيقول: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف: ١١١)، وعندما يوجهنا إلى النظر في خلق السماوات والأرض، يربط هذا بالإيمان فيقول: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرعد: ٢-٤). ففي هذه الآيات – كمثال – جاء من الظاهرات الكونية ما يتعلق بالسماء والأرض والشمس والقمر، والليل والنهار، والجبال والأنهار، والأرض والثمار، كما جاء ذكر اليقين والتفكر والعقل. بل في الآية الواحدة يأتي حشد من الظاهرات يتبعها دعوة إلى الايمان بالله واليوم الآخر وإلى العمل الصالح في الحياة.

دعوة إلى العلم

والقرآن دعوة دائمة وممتدة إلى العلم . والعلم – في المفهوم القرآني والنظرة الإنسانية – آخذ في الاتساع : توغلاً في أعماق الذرة ومزيداً من الفهم للأرض والإنسان ، وسبحاً في أعماق الفضاء يقول تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت : ٥٢).

والإنسان مدعو إلى طلبه ، وإلى السير في الأرض بحثاً عنه : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (العنكبوت : ٢٠).

ويدعو القرآن إلى التأمل في خلق الله ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (الغاشية :١٧ :٢٠) .

وينهاه عن اتباع ما لا يعلم فيقول : ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ (الإسراء :٣٦) .

فلننظر إلى الآفاق المبينة لعالمية القرآن دون اقتصار على أحداث ومشاهد أرض القرآن بالمفهوم المحدود لهذه الأرض.

الكون

يدعو القرآن إلى التأمل في مشاهد الكون الكبير . ويذكر السماء ذات البروج ، وحركة كواكبها ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ

الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس: ٣٨ - ٤٠) .

ويشير إلى عظمة خلقها فيقول : ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ (النازعات :٢٧-٢٩) .

ويقسم القرآن بمواقع النجوم ، وأنها من خلق الله فيقول: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (الواقعة :٧٥-٧٦) .ويقول: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴾ (النجم:٤٩) .

الايمان والمنفعة والجمال

وتبدو هذه الجوانب الثلاثة في نظر القرآن إلى الكون :

١- إيماناً بالخالق عن طريق النظر والتأمل : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف: ١٨٥) .

٢- وانتفاعاً بما ينزل من السماء : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾ (الرعد : ١٧) .

٣- واحساساً بما فيها من جمال . وفى هذا نقرأ قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾ (الصافات: ٦) وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ (ق: ٦) .

وفى القرآن أكثر ما تأتى الزينة - مدحاً - في خلق السماوات وما فيها من نجوم، وفى تزيين الإيمان في القلب ، واتخاذ الزينة عند دخول المساجد .

الأرض

ويبين القرآن أن الأرض خلقها الله لنا ، ومنها نباتنا ، وفى مناكبها سعينا ، ومن مادتها نستخرج معاشنا ، وفى ثراها نستريح بعد رحلة الحياة ثم نبعث يوم القيامة . وفى هذا نقرأ قوله تعالى :

١) ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (البقرة : ٢٩) .

٢) ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ (نوح : ١٧-١٨) .

٣) ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا من رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (الملك : ١٥) .

٤) ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾ (الرحمن : ١٠) .

٥) ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ (طه : ٥٥) .

ظاهرات وجه الأرض

١-ويشير القرآن إلى اختلاف سطح الأرض من حيث الارتفاع ومن حيث اللون يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (فاطر : ٢٧-٢٨) .

وفى اختلاف أنواع التربة يقول تعالى : ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ ﴾ (الرعد : ٤) ، ويقول تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ

بِقَدَرِهَا ﴾ (الرعد :١٧) ، ثم يقول بعد هذا : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ (الرعد :١٩) .

وكما أن المطر في نزوله تحيا به قطع من الأرض ، ولا يفيد أخرى ، كذلك الإيمان ، تتقبله قلوب وترفضه قلوب، ويضرب الله لذلك المثلين الآتيين:

١) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة:٢٦٤) .

٢) ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (البقرة :٢٦٥) .

الصورة الأولى : صخر عليه طبقة رقيقة من التراب ، فعندما سقط المطر اكتسحها ، وبقي الصخر عاريا غير قادر على الإنبات .والصورة الثانية : حديقة جذور نباتها تمسك بتربتها ، وهى على ربوة ينصرف عنها القدر الزائد عن حاجتها من الماء ، ويبقي فيها ما يصلح به نباتها وتعطى الثمر الوافر . وإذا لم يسقط عليها المطر الكثير ، استطاعت أن تحتفظ في تربتها بالقليل يسقي نباتها.

وفى المثلين أبعاد أوسع في علاقة موارد المياه بالتربة : إنها تعطينا صورة حية لقدرة جذور النبات على حفظ التربة من الجرف، والجذور صورة من صور التعاون، إنها أقرب ما تكون إلى الأصابع الممتدة في الأرض والقابضة على ما فيها من تربة، والمقاومة لأخطار المطر الغزير . هي – عمليا – مجتمع إرادة ، وتماسك من أجل الحياة، وإذا كانت هذه الجذور غائرة في الأرض ، لا تراها العين ، فهى التي تحفظ

للنبات غذاءه ، واستقراره وسموقه في الفضاء بكل ما يحمل من فروع وأوراق ، وما يمنح من ظل وثمر . أما الصفوان فصلابته غير نافعة والعلاقة بين التراب والصخر هشة لا تصمد أمام أي اختبار ؛ فما أن ينزل المطر ، حتى ينحسر التراب ويبقي وجه الصخر بارزاً عاريا، فبين التراب والصفوان تجاور لا تماسك، بينما يزيد المطر الربوة تماسكا ، وأشجارها ثمراً.

ويتحدث القرآن عن مصادر متنوعة من الماء :

١- ماء المطر تحمله السحب كما في قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ** ﴾ (النور:٤٣) ، وتشير الآية إلى مصدرين : المطر والثلج .

٢- جزء من هذا الماء تحمله الأنهار ، وجزء يسلك في الأرض ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ** ﴾ (الزمر:٢١).

٣- ويعود هذا الماء ليتفجر من الصخر ، أو تفيض به العيون : ﴿ **وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ (البقرة:٧٤) .

ويقول تعالى: ﴿ **وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ** ﴾ (يس:٣٣-٣٤).

دورة التبخر والتكاثف

وتشير الآيات التالية إلى دورة التبخر والتكاثف:

١- ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف:٥٧).

٢- ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴾ (فاطر:٩).

السـراب

يشبه القرآن إحساس الكافر بالإحباط، بإحساس الظامى، إذا قصد الماء ولم يجده، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (النور:٣٩).

عالم البحار

ويصف القرآن البحار في إتساعها، وهدوئها، وثورتها، ومصادر الثروة فيها، أوصافاً كانت السبيل إلى غرس الإيمان في قلوب سليمة، عندما قرأت آيات الوحى تنزل على قلب خاتم النبيين وهو الأمى الذي لم يَبْل حياة البحار.

١- ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل:١٤).

٢- ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم

بريح طَيِّبَة وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (يونس: ٢٢) .

٣- ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ (النور: ٤٠) .

ومع أن شعر الجاهلية عرض لوصف البحار وما فيها من سفن يجوز بها الملاح طرقا ويهتدى ، وأن حياة البحر كانت نشطة عند عرب الجنوب ، إلا أن الوصف القرآني المعجز للبحر يدعو إلى الوقوف عند جوانب فيه :

١- ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ . فحركة الريح والموج كانت منتظمة . ويأتى الضمير بجمع المؤنث السالم (وَجَرَيْنَ) . وقد ينتظم مسار الفلك حتى مع اشتداد الموج كما في قصة نوح ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ (هود : ٤٢) . ويتبدل المشهد في قوله تعالى : ﴿ جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ ويحدث هذا مع اشتداد الريح وتغير اتجاهها وتصادم جبهاتها ، ويدفع كل اتجاه أمواجه ، فيأتى الموج ﴿ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ . ويأتى معه الخطر من كل مكان : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ .

٢- وإذا كان هذا المشهد يصور الأخطار « الأفقية » في البحر ، فإن الآية الأخرى تصور الأخطار « الرأسية فيه . إنها تصف المنظر متراكبا : فالبحر اللجى مظلم ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ ، قبل أن تنتهى الموجة وتبلغ قرارها تغشاها موجة أخرى ، وفوق الموج سحاب . والسحاب

رداء من الظلمة يصبح الموج تحته ظلمات ، فإذا المشهد كله ظلمات بعضها فوق بعض . ويجاهد أصحاب السفينة أن يدرءوا عن أنفسهم الخطر المحدق ، ويلتمسوا إلى النجاة سبيلاً، ولكن : كيف؟ ولا يرى أحدهم صاحبه؟ و﴿ **إذا أخرج يده لم يكد يراها** ﴾ . إنه يحس بها أمامه . إنها يده ولكن أنظر إلى عمق التصوير في قوله تعالى : ﴿ **لم يكد يراها** ﴾ . ويأتى تعقيب الله بعد هذا ﴿ **ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور** ﴾ .

ويتسع مفهوم الآية مع إتساع معارفنا ، وتكشف الأقمار الصناعية أن الأمواج لا تضطرب فوق سطح البحار وحدها ولكن في أعماقها أيضاً . وتلك أكبر وأخطر ولا زال البحث يجرى لمعرفة أسباب الأمواج العميقة . ومن طبيعة الماء - وبخاصة إذا كان مائجا - أن يقل الضوء وهوينفذ فيه حتى يختفى في الأعماق . فإذا القاع مظلم . تماماً كظلمة الفضاء الخارجي ، فليس في الكون من نور إلا ما خلق الله : وللنور مصادره وخواصه وقواعده في السرعة والانتشار .

٣- هذا إلى ما يسر الله في البحر من رزق ، هو طعام وجوهر ووسيلة انتقال ، يتسع بها مجال الحياة أمام الإنسان ﴿ **هو الذي يسيركم في البر والبحر** ﴾ .

عالم النبات

ويعنى القرآن بالغطاء النباتي للأرض كما عنى بالغلاف الغازى والمائي وآفاق السماوات :

١- فهو يربط بين الماء والنبات : ﴿ **هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ⑩ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾ (النحل : ١٠-١١) .

٢- ويوضح مجالات التنوع والجمال في الحياة النباتية : ﴿ **وهو الذي أنزل من**

السَّمَاء مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الانعام: ٩٩).

وتصور الآية رحلة الماء من السماء إلى باطن الأرض ، وتمتد الجذور كأنها أكف ساجدة ، وترتفع السوق حاملة الأغصان والأوراق والأزهار والثمر، وتسرى العصارة الحية من جوف الأرض وظلمتها إلى أعلى – ضد قانون الجاذبية – وترتفع معها الحياة ، كأنها الكلمة الطيبة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (إبراهيم: ٢٤–٢٥) .

وتحمل الحبة تسجيلا لمستقبلها وتوقيتا لمراحل نموها ﴿ نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ . . ﴾ وبعض النبات يثمر في شهور كسنابل القمح ونظائره من الحبوب الغذائية ، وبعضه في أعوام كالزيتون والرمان . وتدعونا الآية إلى النظر : ﴿ إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾. نظرة فيها إحساس بالجمال وطريق إلى الإيمان.

ولنتأمل في وصف الله للنبات ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ مع أنه يسقى بماء واحد، ويحيا في تربه واحدة ، وجو واحد.

ونقرأ الدعوة إلى التأمل في جمال الحياة النباتية في أكثر من موضع من القرآن: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ (ق: ٧–١١).

٣ - وتتباين الحياة النباتية من حيث الكثافة : فهى أحياناً مراع مفتوحة ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ (النازعات: ٣١)، وهى أحياناً أيك، متجمع الشجر وجنات، والجنة ما اجتمع من النبات حتى يستر من فيه.

ويصور القرآن جنات مخططة تخطيطا يجمع بين عناصر متعددة : سهولة الرى، وحماية النبات عن طريق زراعة نباتات قوية حول الجنة - مصدات رياح -، بحيث لا تؤثر الرياح الشديدة على النباتات داخل الجنة ، ونقرأ هذه الأوصاف في قوله تعالى : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ (الكهف: ٣٢-٣٤).

٤ - وتتعرض الحياة النباتية لأخطار متعددة:

أ - كالسيول المدمرة في قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ (سبأ: ١٦).

ب - الصواعق : في قوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ (القلم: ١٩-٢٠).

ج - الآفات والحشرات في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ﴾ (الأعراف: ١٣٣).

د - نقص موارد المياه : ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ (الكهف: ٤١) ، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ (الملك: ٣٠).

٥ - دورة الحياة النباتية : وتشير الآيات إلى هذه الدورة بدءا ونمواً وازدهاراً وجفافاً . وتشبه بها الحياة الإنسانية ذاتها: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ (الكهف: ٤٥)، وقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (الحديد: ٢٠).

الحيـــوان

أكثر من سورة في القرآن الكريم تحمل اسماً من عالم الحيوان : البقرة، الأنعام، النحل، النمل، العنكبوت، الفيل .. وأكثر من مثل يضربه القرآن يرد فيه ذكر الحيوان:

- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ (البقرة: ٢٦).

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٧٣-٧٤).

ويشير القرآن إلى التنوع في عالم الحيوان مع وحدة الأصل :

١- هناك تنوع في الحركة :

- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ

رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (النور: ٤٥).

٢- وتنوع في مجال الحياة مع نظم تعيش بها:

- ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (الانعام: ٣٨).

- ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ... ﴾ (النحل: ١٤).

- ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ... ﴾ (فاطر: ١٢).

وتجمع هذه الآيات عوالم البر والبحر والجو ...

٣- وتباين في القوة:

فمن مستوى الضعف في قوله: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤١).

إلى مستويات القدرة في كبار الحيوان وأكثرها بطشا: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ (المدثر: ٤٩-٥١).

٤- التوجيه الإلهي والرعاية:

لما كانت الدواب والطيور أمما - كما يذكر القرآن - فإن لكل منها نظامه وحياته:

- ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾ (النحل: ٦٦).

- ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٦٨، ٦٩).

٥- المنفعة والجمال:

- ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (النحل: ٥-٩).

ويمتن الله تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام وما جعل فيها من المصالح والمنافع ؛ فمن أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون . ومن ألبانها يشربون . ويأكلون من أولادها ، وما لهم فيها من الجمال - وهو الزينة - عند عودتها من مرعاها وعند ذهابها إليه غدوة ، وتحمل الأثقال التي يعجز الإنسان عن حملها وذلك في الحج والعمرة والتجارة . ويخص الله بالذكر : «الخيل والبغال والحمير» فهى للزينة والركوب . وللخيل مكانتها في السلم والجهاد في سبيل الله.

وتختم الآية ببيان طريق الله . وعلى الله قصد السبيل «وأن هناك طرقاً حائدة عنه ، ومنها جائر، وأن على الإنسان أن يعمل عقله ليهتدي إلى الحق ، فالأمر ليس جبراً ولا قسراً ولو شاء لهداكم أجمعين».

٦- الحيوان كمصدر للمعرفة :

ونقرأ في القرآن أكثر من صورة لتعلم الإنسان من الحيوان :

- ففي قصة ابني آدم ، عندما قتل أحدهما الآخر ، يقول الله : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ (المائدة : ٣١) .

- وفي قصة سليمان عليه السلام نذكر مشهد الهدهد بعد عودته وهو يقول لنبي الله : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ (النمل : ٢٢)، وفي القصة إشارة سابقة إلى وادي النمل عندما مر عليه سليمان فقالت نملة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ (النمل : ١٩) .

الإنســـان

ويعني القرآن بالإنسان - خليفة الله في أرضه - ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة : ٣٠)، وتأتي هذه الآية بعد قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢٩) . وإليه أرسل الرسل مبشرين ومنذرين : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر : ٢٤) .

١- رحلة الخلق :

ويبين القرآن مراحل خلق الإنسان : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً

فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٢-١٦).

٢ - رحلة العلم:

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل: ٧٨).

٣- مصادر المعرفة:

ويشير القرآن إلى مصادر المعرفة الإنسانية:

أ - وأعلاها وحى الله : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٦-١٥٨).

والإسلام بهذا دعوة إلى التصديق بالأنبياء جميعا ، وما جاءوا به من توحيد الله، وإيمان بالعمل الصالح فى الحياة الدنيا ، والجزاء فى الدار الآخرة.

ب - والكون ودراسته هو المصدر الثانى للمعرفة : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠).

ج – والنفس الإنسانية مصدر ثالث: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢٠–٢١).

د – والتاريخ الإنسانى مصدر رابع: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف: ١٠٩).

واتسعت آفاق المعرفة الإنسانية ، دون صراع جوهرى بين صريح الوحى والتقدم العلمى فى الحضارة الإسلامية ؛ ففى الوحى دعوة إلى العلم ، وحقائق العلم طريق إلى الإيمان، الإيمان بالله وبالإخاء الإنسانى وبالعمل الصالح الذى تعمر به الحياة وتزكو فى كافة مجالاتها .

وتميزت هذه الحضارة بميزات ثلاث رئيسية: الربانية – الإنسانية – الشمول، واستطاعت أن تتجاوز مشكلات تعثرت ولا زالت تتعثر فيها حضارات أخرى؛ مشكلات الإلحاد الذى يضل به الإنسان طريقه، والشرك الذى تتفرق به السبل، والعنصرية التى تفرق الإنسان عن الإنسان ، والإنطوائية التى تحصر جهوده فى مجالات محدودة.

ويعتبر الإسلام طلب المعرفة – فى كافة آفاقها – عبادة تقرب الإنسان من ربه، وتوثق الصلة بين الناس ، وتتقدم بها الإنسانية .

٤– المعرفة والعلم تكريم للإنسان: كان العلم أول تكريم للإنسان بعد خلقه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة: ٣١).

وأخبرنا القرآن أنه تكريم لخاتم النبيين ﷺ – فى أعلى درجات تكريمه ليلة المعراج: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ

﴿ الأَعْلَىٰ ﴾(النجم :٥-٧)، وأمره ربه بطلب العلم والاستزادة منه : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (طه :١١٤) .

والعلم طريق الإيمان والشهادة به فى قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران :١٨) .

وهو ركيزة أساسية فى تقدم الأفراد والأمم : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ (الزمر :٩) .

وهو فى الإسلام وثيق الصلة بالإيمان بالله وبالآخرة والجزاء . وتجمع الآيات التالية ذلك كله مع ربطه بمصادر المعرفة :

- ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ۞ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ۞ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (الروم :٦ : ٩) .

ومن كرامة العلم عند الإنسان يسرى نوع من التكريم إلى بعض الحيوان؛ فالقرآن يفرق بين الجوارح المعلمة وغير المعلمة ، ويجعل ما تمسك علينا الأولى حلالاً أكله، بينما يحرم ما تمسك الجوارح غير المعلمة . يقول الله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ

﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ (المائدة: ٤-٥)

ومن تفسير الإمام ابن كثير لهذه الآية : «وأحل لكم ما صدتموه بالجوارح وهى الكلاب والفهود والصقور وأشباهها .. وسميت الحيوانات التى يصطاد بها جوارح، من الجرح - وهو الكسب -كما تقول العرب : فلان جرح أهله خيرا، ويقول تعالى: ﴿ ويَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ أى ما كسبتم من خير أو شر» .

٧- حاجات الإنسان الأساسية :

ويبين القرآن حاجات الإنسان الأساسية فى قوله تعالى مخاطبا آدم بعد أن أبى ابليس السجود له : ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ ﴾ (طه:١١٧-١١٩).

وتبدو فى هذه الآيات ست حاجات : (١) تكوين الأسرة (٢) السكن (٣) الطعام (٤) الكساء (٥) الشراب (٦) الوقاية من تقلبات الجو ويمثلها هنا التعرض المباشر للشمس فى قوله تعالى: ﴿ وَلا تَضْحَىٰ ﴾ .

وكان هبوط آدم الدنيا بعد المعصية والتوبة التى يمثلها قوله تعالى: ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (طه:١٢١-١٢٢)، وكرمه الله بأن جعله خليفته فى أرضه: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ﴾ (طه:١٢٣)، وانتشر الإنسان فى الأرض ، وتنوعت أساليبه فى إشباع حاجاته الأساسية ، كما تنوعت النظم التى يعيش فى ظلها، وظهرت صورة هذا فى الدراسات التى تسجلها وترصد تطوراتها. وأصبحت علوما قائمة برأسها ، يضاف إليها كل يوم جديد ، ولنتناول كلا منها بشيء من التوضيح:

الأسـرة

ويوجه إليها القرآن عناية كبيرة ، باعتبارها الخلية الأولى للمجتمع،يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم : ٢١) .

وتتسع دائرة العلاقات الأسرية لتشمل النسب والصهر فى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ (الفرقان : ٥٤) .

ويعنى القرآن بشؤون الأسرة من كافة جوانبها ، وعلاقاتها الرأسية بين الأجيال المتتابعة ، والأفقية بين الجيل الواحد ويحرص على دعم روابطها ويدعو إلى بر الوالدين وتربية الأبناء وصلة الرحم . . : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء : ١)

المسكن

ويبين القرآن أنواع السكن : المستقر منها وسهل الحمل : مساكن المدن والزراع ومساكن الرعاة . وفى القرآن نماذج من هذا كله :

– ويصف مساكن ثمود – قوم صالح – وأنها كانت من نوعين أحدهما قصور مبنية فى السهول والثانى بيوت منحوتة فى الجبال فيقول : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ (الأعراف : ٧٤) .

– وعن مساكن الرحلة يقول : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (النحل : ٨٠)، (والظعن يعني السفر) .

– وإلى الصروح المشيدة تشير الآية الكريمة فى قصة سليمان وملكة سبأ: ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (النمل:٤٤).

– وجاءت الحصون فى قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ (الأحزاب:٢٦).

الطعام

ويشير القرآن إلى مصادر الطعام وأنواعه من زراعية ورعوية وبحرية:

أ– الزراعية فى قوله تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴾ (يس:٣٣–٣٥).

ب – والرعوية فى قوله: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴾ (يس:٧١–٧٣).

ج – والبحرية فى قوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل:١٤).

د – كما سبقت الإشارة إلى حيوان الصيد كمصدر للطعام: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ.. ﴾ (المائدة :٩٤)، وقوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ

صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (المائدة:٩٦).

الكســاء

يذكر القرآن صنوفا من الكساء للحر والبرد ، والسلم والحرب ، وهى – من قبل هذا – ستر من الله، يتكامل مع ستر الروح بالتقوى، وهى أيضا جمال وزينة :

أ – الستر فى قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (الاعراف:٢٦).

ب – تنوع الكساء من تنوع الأجواء والمناسبات فى قوله تعالى : ﴿ ..وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ، كذلك ليتم نعمته لعلكم تسلمون ﴾ (الأعراف :٨١).

ج – الجمال والزينة فى قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأعراف:٣١)، وذلك فى حدود ما بين الله من ابتعاد عن التبرج، وألا يبدو من الزينة إلا ما أمر الله به ولمن أمر الله به .

ماء الشرب

وجاء فى عرض موارد المياه . وهى أساس الحياة فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٠) . ويصفه ربنا بالطهر فى قوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ (الفرقان:٤٨-٤٩).

ويرد الماء فى مواطن تفضل به الله على عباده :

أ- فى قصة مريم عندما أجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا .. ﴾ (مريم :٢٣-٢٦) .

ب – وفى قصة أيوب عندما منّ الله عليه باستجابة دعوته : ﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ فجاء الماء تطهيراً لجسمه من الخارج واطفاءا لظمئه من الداخل .

ج – ويأتى احترام حق الماء فى سياق معجزة نبي الله صالح ﴿ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (الشعراء:١٥٥)، وقوله تعالى : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ (القمر:٢٨) .

د – وتفجيره من الصخر وانزاله من السماء وقت الحاجة إليه فضل من الله به على أكثر من نبي، يقول تعالى : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (البقرة : ٦٠) .

وفى غزوة بدر نقرأ قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ﴾ (الأنفال:١١) .

هـ – ثم هو من جزاء الإنسان على عمله الصالح فى الآخرة : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ (الحاقة:٢٤) .

الظل

(أو التوقي من تقلبات الجو)

ويربط بعض المفسرين بين الظمأ والضحيان وبين الجوع والعري ، في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ ﴾، فنقول إن الجوع هو ذل الباطن والعري ذل الظاهر ، وأن الظمأ هو حر الباطن والضحيان حر الظاهر.

أ- وحركة الظل في القرآن مظهر لقدرة الله، وهي مرتبطة بحركة الشمس يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ (الفرقان: ٤٥ -٤٦)، ولقد ظلت للمزولة الشمسية مكانتها في الحياة الإسلامية للدلالة على الأوقات بعامة، وعلى مواقيت الصلاة بخاصة . كما أن آلات رصد مسار الشمس على مدار السنة لا تزال لها مكانتها عند الملاحين والرحالة.

ب - والوقاية من حر الشمس كانت مما تفضل الله به على موسى وقومه : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴾ (البقرة: ٥٧).

ج - وإلى الظل كانت راحة موسى بعد وصوله أرض مدين وسقياه لبنات الرجل الصالح: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ ﴾ (القصص: ٢٤).

د - وكما رأينا الظل مظهر رحمة وفضل في الدنيا . فهو من ثواب الآخرة . يقول تعالى في وصف الجنة: ﴿ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾ (الإنسان : ١٣-١٤).

٨ - الحرف الأساسية

وكما يذكر القرآن حاجات الإنسان الأساسية الست يذكر حرفه الأساسية وكلها - أيضاً - في موضع الفضل من الله على الإنسان ، والدعوة إلى مزيد من السعي مع التعاون بين القادر وغير القادر .

الجمع والالتقاط :

وهى أبسط وأقدم الحرف الإنسانية . جاءت فى قوله تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴾(الأعراف : ١٦٠) ، والمن طل ينزل من السماء على شجر أو حجر يتعقد ويجف جفاف الصمغ ، وهو حلو يؤكل . والسلوى طائر مثل السمانى.

الصيد :

من البر و البحر . و قد مر ذكر آياته فى مصادر الطعام .

الرعى وتربية الماشية :

وفيها قوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾(طه:٥٤) .

الزراعة :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (السجدة:٢٧) ، والأرض الجرز ما أكل واقتطع نباتها.

التخطيط الزراعى:

يبدو فى تنظيم العلاقة بين الإنتاج الزراعى ورفع معدله مع تقييد الاستهلاك وتنظيم الاستهلاك والاحتفاظ بفائض للاستثمار بعد هذا . . . وتتجمع هذه

العناصر جميعاً فى قوله تعالى فى قصة يوسف : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ (يوسف :٤٧-٤٩)، وهذا التخطيط ينسحب على كافة مرافق الإنتاج حين تقتضيه ظروف المجتمع.

الصناعة والحرف اليدوية :

وترتبط فى القرآن بحياة الأنبياء و الصالحين . .

- نوح وصناعة السفينة : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ (هود :٣٧)، ونقرأ توجيه الله الناس إلى النشاط البحرى فى قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ . . ﴾ (الحج :٦٥)، ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴾ (الرحمن :٢٤).

- الصناعات المعدنية : فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (الحديد :٢٥) ، وعن سيدنا داود نقرأ : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ (سبأ :١٠)، وعن سليمان : ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ (سبأ :١٢) ، وفى السورة أوصاف للإنتاج المعدنى - و قتئذ - من أسلحة الحرب و لباسها والدروع والأوانى الكبيرة : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (سبأ :١٣).

وكذلك صناعات النسيج فى قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا . . ﴾ (الأعراف :٢٦).

التجارة:

ويوجه القرآن عنايته إلى حرفة التجارة وآدابها ، وينهى عن كل أساليب الظلم والغبن فيها:

- ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (المطففين: ١-٦).

- وفى نصح شعيب - خطيب الأنبياء - لقومه ﴿ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٥).

- ثم بين القرآن أن أفضل التجارة ما كان مع الله ، عملاً صالحاً وعمارة للحياة ورفعاً لكلمة الحق. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الصف: ١٠-١١)، وفى أكثر من آية فى القرآن نقرأ ألفاظ: الميزان. خفت موازينه. القرض. الربح. تجارة لن تبور. الحساب. الشاهد. الرهان المقبوضة. الكيل. الصواع. البضاعة. الكتاب. وتفاصيل عن المعاملات التجارية فى البيع والشراء والمداينة وتحليل البيع وتحريم الربا وأكل أموال الناس بالباطل ، كما تدعوا إلى حركة المال وعدم اكتنازه أو استخدامه سلاحاً للضغط الاقتصادى على الأجهزة الحاكمة لئلا يفتح الطريق إلى استغلال المستضعفين: ﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٨).

وتحدث القرآن عن المراكز التجارية المستقرة والأسواق ، وعن الرحلات التجارية

– رحلة الشتاء والصيف لقريش – وعن وسائل الانتقال المتنوعة المستخدمة فى التجارة البرية و البحرية.

الإدارة:

فى قصة يوسف عليه السلام ، رأينا نموذجاً من الإدارة الزراعية فى مقابلة سنوات القحط بالاستعداد لها . وفى القرآن نماذج أخرى من إدارة الإنشاءات، تحتاج إلى تنظيم الجهد البشري وإعداد المواد الأولية وتوقيت العمليات.

وفى قصة ذى القرنين صورة لإدارة هذه العوامل كلها، والقصة من مشهدين رئيسيين:

الأول :شعب مستضعف فى موقع يصفه القرآن بقوله : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً** ﴾ (الكهف : ٩٣) ، وهؤلاء يخشون غارة جيران مفسدين، فعرضوا على القائد مالاً ليجعل بينهما سداً.

الثانى :رغبة القائد فى أن يتحول هذا الشعب إلى مشارك فى العمل بنفسه يجمع الحديد والنحاس ويبذل الجهد ويعاون فى الصهر والتشييد، حتى يتحقق الترابط العضوى بين القوم والسد . وتم العمل . وشهد القوم اختباره ﴿ **فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي** ﴾ (الكهف:٩٧، ٩٨).

فعالم القرآن مفتوح على إيجابية الحياة فى هذه الأنشطة جميعاً، ويراها فضلاً من الله ورحمته.

ثالثاً: مجتمعات القرآن

١- الوحدة فى التنوع:

ويعرض القرآن لأنماط متنوعة من المجتمعات، دون أن يدخل فى تفاصيل عن تقسيم البشر إلى أجناس و ألوان، وفى هذا يختلف منهج القرآن عن سفر التكوين، وبخاصة فيما بعد طوفان نوح.

يقول الله تعالى عن وحدة الإنسان ثم اختلاف الألسنة والألوان:

- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات: ١٣).

- ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ (الروم: ٢٢).

وعن نوح ومن معه بعد الطوفان:

- ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (هود:٤٨)، وليس فى القرآن ما يدل على أن الطوفان كان عالمياً. ولا أن رسالة نوح وصلت إلى الناس أجمعين فى عصره حتى يقيم الله عليهم الحجة برسالته مصداق قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾(الإسراء:١٥).

أما فى سفر التكوين فنقرأ وعد الله لمن أنجاهم مع نوح فى السفينة: «اقيم ميثاقى معكم فلا ينقرض كل ذى جسد أيضاً بمياه الطوفان . ولا يكون أيضاً طوفان ليخرب الأرض» (تكوين:٩ :١١)، ولكن بعد هذا نقرأ: «وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك سام ويافث وحام وهو ابن كنعان، وهؤلاء الثلاثة هم بنو نوح. ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض» (تكوين٩ : ١٨)، وتبتدئ التفرقة بين

الأبناء فى سفر التكوين من عهد نوح «فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير . فقال : ملعون كنعان . عبد العبيد يكون لاخوته . وقال : مبارك الرب إله سام. وليكن كنعان عبداً لهم . ليفتح الله ليافث فيسكن فى مساكن سام وليكن كنعان عبداً لهم»(تكوين٩ :٢٤-٢٧) ، وإلى هذه النصوص استند بعض الذين حاولوا الترويج للتفرقة العنصرية ، كما حاولوا تأكيد قصة الشعب المختار عن طريق تسلسل خاص فى ذرية سام.

ليس فى القرآن شيء من ذلك . فكل إنسان مسئول عن عمله ﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (الإسراء:١٥) ولا مكان لاستبعاد أخ لاخوته ، ولا شعب لشعب . فالقاعدة : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات:١٣) .

ونستطيع القول أن التنوع بين المجتمعات – كما يصوره القرآن – تنوع أفقى. والتكريم أو التفضيل فيه مرتبط بالعمل الصالح ، ولا مكان لشعب مختار يحتل قمة الوجود الإنسانى.

يقول الله عن الأمة الإسلامية ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ﴾ (آل عمران:١١٠) . فالتكريم فى الآية مرتبط بثلاثة أمور كسبية : إيمان بالله ، فعل خير ، نهى عن منكر، وبعبارة أخرى : إيمان تعبر عنه إيجابيات الحياة ويزيل من الطريق سلبياتها ، وباب الإسلام مفتوح لكل راغب ، دون أن يقتصر على جنس أو طبقة اجتماعية أو وضع اقتصادي.

وإذا ما تحدث القرآن عن التنوع أرجعه إلى اختلاف الظروف التى يعيش فيها الناس ومدى قدرتهم على تطويع عناصر الحياة بين أيديهم ، معتبراً عملهم فى

هذه المجالات جميعاً ، عمارة للحياة واستجابة لامره تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (الملك : ١٥).

فى هذا الضوء يمكن أن نستعيد الحرف التى سبق ذكرها ، وعليها قامت مجتمعات بشرية تختلف فى الحجم و مستويات التقدم ومدى قبولها الإيمان بالله ، أو تفرقها عن سبيله ، أو تقلبها بين الطاعة والمعصية، والازدهار والأفول.

٢ - إلى الإيمان والعمل :

فالقرآن دعوة إلى الإيمان و العمل و النظام :

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ (الكهف : ٣٠).

وفى سورة الشعراء نقرأ على لسان أكثر من نبي :

- ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الشعراء : ١٠٧-١٠٩) عن نوح، ١٢٥ - ١٢٧ عن هود ، ١٤٣ - ١٤٥ عن صالح ، ١٦٢ - ١٦٤ عن لوط ، ١٧٨ - ١٨٠ عن شعيب).

ويجمع قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ الإيمان والعمل والنظام ، ثم يأتى تصوير المجتمعات مفصلاً ، بقدر ما يوجه الناس إلى بناء الحياة . ويؤكد القرآن هذه الركائز فيقول :

- ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ (النساء : ١٢٣-١٢٤).

الحياة فى القرآن ليست بالأمانى . والرباط وثيق بين العمل والنتيجة ، كما هو بين الزرع والثمر . وأى خروج عن هذه القاعدة تبدو نتائجه ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة : ٧-٨) .

ويعطينا القرآن نموذجاً مما حدث فى غزوة أحد بين الجيش الإسلامى - بقيادة المصطفى ﷺ ، وجيش قريش . وكيف انتصر المسلمون أول الأمر عندما طبقوا الخطة المرسومة . ثم كيف انهزموا عندما خالف الرماة أمر الرسول القائد ﷺ فكشفوا ثغرة نفذ منها خالد بن الوليد على رأس فريق من فرسان قريش، ودفع المسلمون - رغم أنهم على الإيمان - ثمن المخالفة فاستشهد منهم سبعون وجرح سبعون ، ثم عاد الجيش الإسلامى إلى التماسك ، ولم يستطع الكفار اقتحام المدينة ولا زحزحة الجيش عن جبل أحد . ويعقب القرآن على هذا الموقف مبيناً أن الانتصار له أسبابه . وأن الهزيمة لها أسبابها وأنه من الممكن أن ينهزم الجيش - وإن كان مؤمناً - إذا لم يحسن استثمار قواه البشرية والمادية والظروف الطبيعية التى يعمل فيها ، وأن ينتصر المشركون وإن كانوا على الكفر إذا أحكموا خططهم ونفذوها بعزم صادق ودقة . يقول الله تعالى : ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ (أى فى غزوة أحد باستشهاد سبعين) قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا (فى غزوة بدر بقتل سبعين وأسر سبعين من الأعداء) قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران : ١٦٥) .

وإذا كنا نرى فى قصص القرآن السابق للإسلام تأكيداً للمعجزات الكونية، ومدى تأثيرها فى المجتمعات البشرية - كما فى الطوفان والخسف والصواعق - فإن الله يقول فى كتابه :

- ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ (الإسراء : ٥٩) .

ولقد ذهبت المعجزات الكونية والخوارق المادية مع التاريخ (كالطوفان وناقة صالح وعصا موسى . .) وبقى القرآن؛ شاهداً على صدقها ، ورافعاً بعدها لواء الإيمان والجهد البشرى والتنظيم يسير به الناس إلى مستقبلهم ، دون الركون إلى معجزة منتظرة، أو حق موروث .

تدهور المجتمعات

وكما يرجع القرآن ازدهار المجتمعات إلى الإيمان والعمل والنظام فإنه يرجع تدهورها إلى فقدان أو اختلال هذه الركائز، ويبدو هذا فى ظاهرات أبرزها :

١- ترف الأجهزة الحاكمة :

ويفرق القرآن بين الغنى والترف؛ فالسعى على الرزق فى الإسلام عبادة ، وحمل مسئوليات المجتمع بأمانة عبادة ، فهذا يوسف عليه السلام يقول لحاكم مصر بعد أن ظهرت براءته :

- ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف :٥٥) .

ويذكر القرآن دعوة سليمان :

- ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ (ص :٣٥) .

وكان من دعاء الرسول ﷺ : « اللهم إنى أعوذ بك من شر فتنة الغنى ، وشر فتنة الفقر ، اللهم إنى أعوذ بك من الكسل ، والمأثم ، والمغرم »(رواه الشيخان عن عائشة رضى الله عنها)؛(والمأثم : ما يأثم به الإنسان أو هو الإثم ، و المغرم : الدين الذى يعجز الإنسان عن أدائه) .

فالرسول ﷺ يستعيذ من مواقف الضعف أمام المال ، والحرمان منه ، والقعود

عن تحصيله ، والإثم فى الطريق إليه، والعجز عن الوفاء بالتزاماته .

ويقول النبى ﷺ : « اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر » (من حديث رواه أبو داود والحاكم عن أبى بكرة)، والكفر : خلو القلب من الإيمان ، والفقر : خلو اليد من المال .

أما الترف فيأتى فى القرآن مذموماً :

– ﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ (هود : ١١٦) فإذا سيطر المترفون على الحكم كان الفساد ، ورفض الاستماع إلى الحق:

– ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (سبأ : ٣٤) . وذلك لحرص المترفين على مكاسبهم ، وتمسكهم بأوضاع قائمة أو موروثة : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (الزخرف :٢٣) .

٢- مقاومة الإصلاح :

وباسم المحافظة على تراث الآباء يحارب المترفون التغيير إلى ما هو أفضل إذا رأوه ماساً بما تحت أيديهم، ولو كان النصح من نبى بعثه رب العالمين :

– ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (الزخرف : ٢٤-٢٥) .

وقد يكون الجمود موقفاً فكرياً لا يجد الجرأة على اختراق جدار الحاضر والماضى إلى مستقبل جديد :

– ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة : ١٧٠) .

٣ - الاستبداد السياسى :

ويضرب له القرآن نموذجاً من قصة فرعون موسى وأبرز مظاهره :

أ) - إهدار الشورى و الانفراد بالرأي تحت ستار المحافظة على الدين والدنيا : **﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾** (غافر : ٢٦) . **﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾** (غافر : ٢٩) .

ب) - جمع الأنصار عن طريق الأموال والمناصب ويبدو هذا فى الحوار بين السحرة وفرعون :

- **﴿قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾** (الشعراء : ٤١-٤٢)

ج)- سرعة اتهام الأبرياء، أو إلصاق التهم بهم ، إذا ما تعارضت مواقفهم مع مواقف الحاكم : فعندما آمن السحرة قائلين : **﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾** (الشعراء : ٤٧-٤٨) كان قول فرعون : **﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾** (الشعراء : ٤٩) .

د- ثم سرعة العقوبة الظالمة :

- **﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾** (الشعراء : ٤٩) .

وفى هذا الضوء نستطيع أن نرى الظلم الذى حاق بيوسف بغير ذنب وكيف لبث فى السجن دون ذنب بضع سنين.

٤-الانحرافات الاقتصادية :

ولها أكثر من نموذج فى القرآن :

أ)- فقد تكون إهمالاً لتخطيط الإنتاج وتعطى قصة يوسف صورة للتغلب عليه بالعمل الدائب المنظم .

ب)- وقد تكون استغلالاً من التجار للمستهلكين بالتطفيف فى المكيال والميزان، يزداد به الغنى غنى والفقير فقراً، كما فى قصة شعيب :

- ﴿ **وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ** ﴾ (هود :٨٥) .

وفى الوقت الذى ينصحهم فيه شعيب بأن التطفيف إفساد فى الأرض، وفساد فى الدين، يستنكرون منه الربط بين الاقتصاد والأخلاق ويدور هذا الحوار :

- ﴿ **بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ** ﴾ (هود٨٦-٨٧) ، كأنما ينادون بحرية التجارة دون قيد، والسيطرة على الأسعار دون رقيب .

ويصور لهم شعيب الموقف السليم ، وفاء بين الناس فى التجارة ، يأتى تعبيراً عن حسن الصلة بالله ورغبة فى جمع العقول والقلوب على الخير دون طغيان فى الميزان :

- ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾ (هود :٨٨) .

ج)- وقد تكون قعوداً عن معونة محتاج ، رغم وجود فائض يسمح بذلك ، ويربط القرآن بين القعود عن أداء الصلاة وعن معونة الناس : ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ** ﴾ (الماعون : ٤-٧) .

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾ (المدثر: ٤٢- ٤٤).

د)- ويحارب الإسلام كنز المال ومنعه من التداول و الوسائل المؤدية إلى زيادته دون جهد حقيقي واستغلال حاجة المحتاج إليه: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (التوبة: ٣٤)، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة: ٢٧٨).

٥-المشكلات الأخلاقية:

ويبين القرآن الآثار السيئة التى تتركها الانحرافات الأخلاقية والجرائم على الأفراد والأسر والمجتمعات، وأنها قد تصيب المجتمع فى مستوياته العليا، وقد تكون شائعة فيه، أو مقتصرة على قطاع منه:

ويمثلها جانب من قصة يوسف حين يدفع الطاهر ثمن الطهر، وتضيق به حياة القصر بما تضم من انهيار أخلاقى، ويصبح السجن مأوى الأحرار. يقول تعالى عن يوسف: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (يوسف: ٣٣). وما كانت عليه من ريبة. بل امرأة العزيز شهدت له قبل سجنه بالطهر فقالت: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (يوسف: ٣٢)، وشهدت ببراءته بعدها وقبيل خروجه من سجنه فقالت: ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (يوسف: ٥٢).

ويضرب الله مثلاً بانتشار الفساد فى قرية لوط، وكانت تعمل الخبائث. واجتمع فيها المفسدون على لوط وعلى الصالحين من أهله وقومه قائلين: ﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (الأعراف: ٨٢).

وقد يسرى الانحلال إلى المجتمعات وهى في ذروة ازدهارها كما ينخر السوس أشجاراً باسقة، تبدو أمام العين قوية، فإذا جاءتها ريح عاصف أقلعتها، وبدت أعجازها الخاوية.

ويصف القرآن هذا التبدل فيقول : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ (الدخان : ٢٥-٢٩) .

ويحذرنا القرآن من الاغترار بالقوة وحدها دون إحساس بالافتقار إلى الله ، فيذكر عن قوم عاد :

- ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (فصلت : ١٥) .

فالانحراف الأخلاقي كما يصور القرآن ، ليس مجرد ممارسة منكر الفعل ، ولكنه - قبل هذا - موقف منها ، يبدو فيه صور ضعفها : تجبراً على الضعيف ، وهواناً أمام قوى ، وجحوداً لنعمة ، وانسياقاً وراء الشهوات ، وتقابله الاستقامة التي يمثلها قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(النحل : ٩٠) .

٦-صعود المجتمعات :

ويفتح القرآن أبواب الأمل أمام الأفراد والمجتمعات ، لتعاود الصعود إذا انحرفت أو انحدرت .

أما عن الأفراد فيقول الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الزمر:٥٣) .

وعن الجماعات يقول الله تعالى مخاطباً قريش بعد عبادتها الأوثان ليعيدها إلى عبادته : ﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ (قريش : ١-٤) .

وتاريخياً ، كان مجد قريش بعد إيمانها ، وعودتها إلى الله ، والعودة إيمان وسلوك، علاقات اجتماعية واقتصادية ودينية وسياسية . وتحقق بهذا وعد الله في

قوله عن قوم رسول الله محمد ﷺ :

- ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ (الزخرف : ٤٤) .

ولا يعتبر القرآن للإنسانية عصراً ذهبياً تنحدر بعده . ولا يبشر بنوع من الحتم التاريخي لأنه مرتبط بسبب واحد ، وإنما حركة التاريخ فيه تدافع وتفاعل بين قوى ومكونات المجتمع :

- ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (البقرة : ٢٥١) .

- ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ (الحج : ٤٠-٤١) .

ويعطى القرآن الجهد البشرى فى التغيير مكانته فيقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد : ١١)، ويقول أيضا : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنفال : ٥٣) .

فكلمة الوحي للإنسان فى القرآن أن يعمل : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (التوبة : ١٠٥) .

ويربط ربنا العمل وجزائه فى قوله : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾ (آل عمران : ١٩٥) .

خاتمــة

وبعد : فقد عشنا مع هذه الصفحات « فى أرض القرآن » وانتقلنا منها إلى « عالم القرآن » :

-العالم الممتد زماناً ليضم التاريخ بدءاً ومساراً وجزاء .

– والممتد مكاناً منطلقاً من أرض القرآن ليضم المشارق والمغارب دون تقيد بقطر أو قارة أو مناخ .

– والممتد موضوعاً ليضم آفاق الحياة دون اقتصار على أفق ، ويصل إلى مدى يربط فيه الدنيا بالآخرة

والقرآن إذا كان عربى اللسان والمنزل ، فهو عالمى الامتداد والهدف، كانت الجزيرة العربية له مهداً . عاشت فيه العقيدة وقامت الدولة حتى اشتد عودها ، ثم قام أبناؤها بنشره ، وحمله معهم من آمن به

ومنذ صدر الإسلام أصبح أتباع القرآن خارج الجزيرة العربية أكثر من داخلها ، وينتشرون عملياً فى قارات الأرض جميعاً .

وفى عالم الطيران الذى نعيشه بدا أفق جديد لدعوة إبراهيم :

– ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (إبراهيم:٣٧) .

كانت الثمرات التى تأتى إلى أرض القرآن طعاماً وعروض تجارة ، فأصبحت الهدايا الآن بشراً مؤمناً بالله ، وأجيالاً جديدة ، تهوى قلوبها إلى البيت العتيق . تتجه إليه فى اليوم خمس مرات فى الصلاة ، و تفد إليه للحج و العمرة ، و تشارك فى عمرانه و تزداد بها قوة الروابط بين « أرض القرآن » و« عالم القرآن » .

والأرض – كل الأرض – لله .

و الناس – كل الناس – عباده .

والقرآن كلماته وهديته وهداه . .



الفهرس

الموضـــوع	رقم الصفحة
تقديم بقلم: أ.د.ياسين مراد	٥
مدخل إلى جغرافية القصص القرآني	١١
الفصل الأول: مدخل جغرافي إلى قصص القرآن الكريم	٢١
الفصل الثاني: قيام الإسلام	٤٧
الفصل الثالث: طريق الهجرة النبوية	٨٥
الفصل الرابع: من وحي المدينة	١١٧
الفصل الخامس: دور اليهود في العدوان على قاعدة الإسلام في المدينة	١٤١
الفصل السادس: من أرض القرآن إلى عالم القرآن	١٦٣
خاتمــة	٢٠٧

